الطبعة العربية الأصلية

پاولو كويلو

مؤلَف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

مخطوطة وُجِدَتْ في عَكْرا





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يوليو 2017 **
www.ibtesamh.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي



مخطوطةٌ وُجدتْ في عَكرا

ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: خليل السيقلي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Manuscrito encontrado em Accra
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت: http://www.paulocoelho.com
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

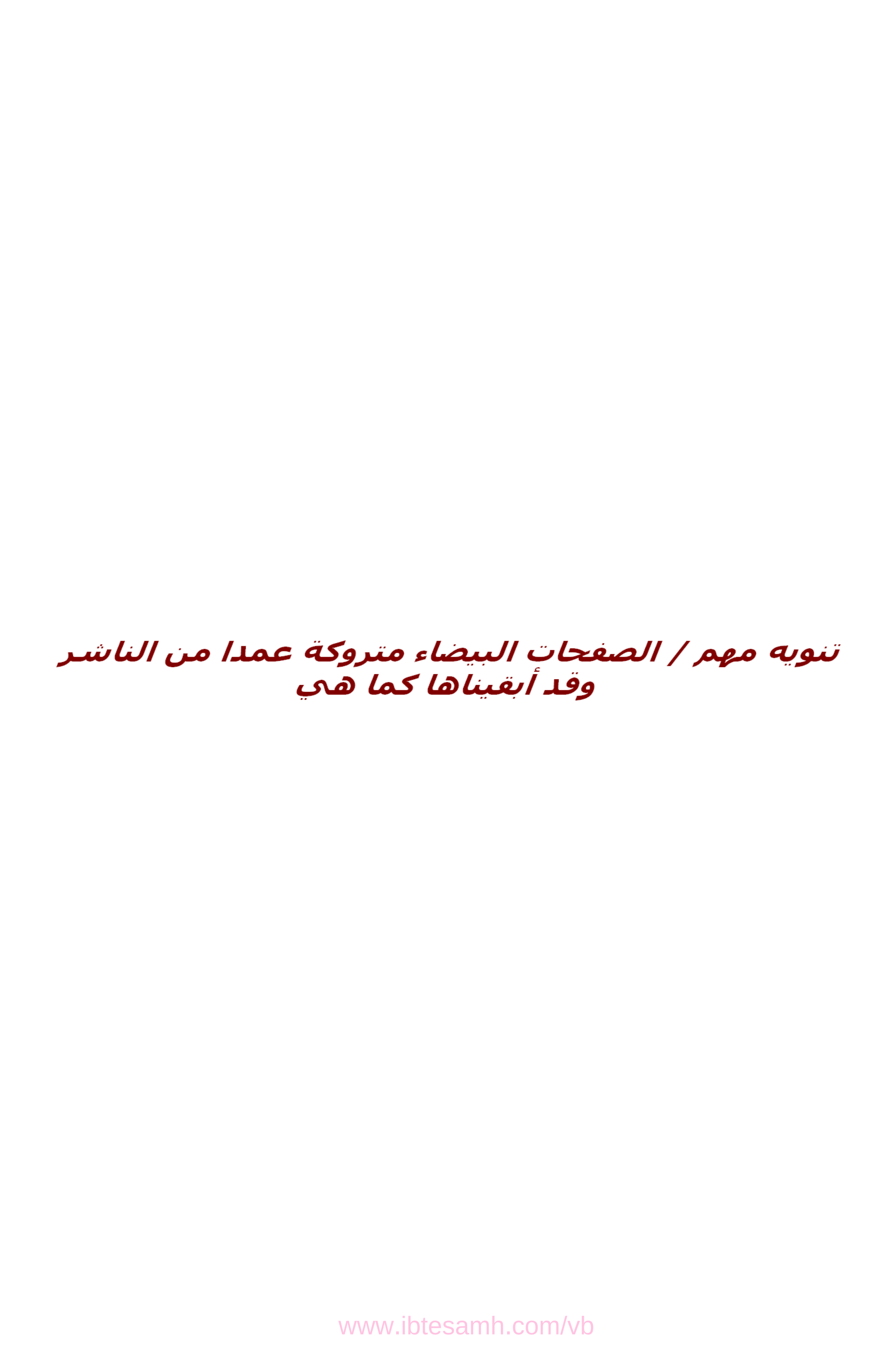
الطبعة الأولى ٢٠١٣
ISBN: 978-9953-88-776-0

تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش

صورة الغلاف:
The Institue of Antiquity and Christianity, Claremont University.



مخطوطةٌ وُجدت في عَكرا



يا مريمُ البريئةُ من الخطيئة الأصليّة، صلّي لأجلنا
نحن الذين نلتجئ إليكِ. آمين.

إلى ن. ر. س. م.، امتناناً على المعجزة.



«يابَناتِ أُورُشَليمَ، لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ، بَل ابْكِينَ على
أَنْفُسِكُنَّ وَعَلى أَوْلادِكُنَّ!».

إنْجيلُ لوقا ٢٣ : ٢٨

تمهيدٌ وتحيّة

في ديسمبر من العام ١٩٤٥، كان شقيقان يبحثان عن مكانٍ يستريحان فيه، وإذا بهما يجدان جرّةً مليئةً بأوراق البَرْديّ في كهفٍ في منطقة حمرة دوم بمصر العليا. وبدل أن يُخبرا السلطات المحلّيّة - كما اقتضى القانون - قرّرا بيع الأوراق في سوق الأثريّات ورقة ورقة، تفادياً من لفت انتباه الحكومة. خشيةَ «الطاقات السلبيّة»، قامت والدتهما بحرق عددٍ من أوراق البَرْديّ هذه المُكتشفة حديثاً.

في السنة التالية، ولأسبابٍ لم يسجّلها التاريخ، تخاصم الشقيقان. وإذ عَزَتِ الوالدة هذا الخصام إلى «الطاقات السلبيّة»، سلّمت المخطوطات إلى كاهن، قام بدوره ببيع إحداها إلى المتحف القبطيّ في القاهرة. هنالك، سمّيت أوراق البَرْديّ بالاسم الذي لا تزال تحمله اليوم: مخطوطات نجع حمّادي (إشارةً إلى البلدة الأقرب إلى الكهوف التي وُجدت فيها الأوراق). أدرك أحد خبراء المتحف المؤرّخ الدينيّ جان دوريس، أهمّيّة الاكتشاف وذَكَرَهُ للمرّة الأولى في منشورة العام ١٩٤٨.

أخذتْ أوراق البَرْديّ الأخرى تظهر في السوق السوداء. وسرعان ما أدركت الحكومة المصريّة أهمّيّتها وحاولت منع إخراجها من البلاد. بعد ثورة ١٩٥٢، سُلّم معظمها إلى المتحف القبطيّ في القاهرة وأُعلنت جزءاً من الإرث الوطنيّ. غير أنّ نصّاً واحداً فات الحكومة، ظهرلاحقاً في محلّ تاجر أثريّات في بلجيكا. وبعد محاولاتٍ عقيمة لبيعه في نيويورك وباريس، استحصل عليه معهد كارل يونغ في العام ١٩٥١. بعد وفاة المحلّل النفسيّ الشهير، عادت المخطوطة، التي أصبحت تعرف بمخطوطة يونغ، إلى القاهرة حيث توجد الآن مخطوطات نجع حمادي بصفحاتها الألف تقريباً وأجزائها الأُخرى.

* * *

أوراق البَرْديّ هذه ترجمات إغريقيّة لنصوص كُتبت بين نهاية القرن الأوّل قبل الميلاد والقرن ١٨٠ الميلاديّ، وتشكّل مجموعة كتابات معروفة أيضاً باسم «الأناجيل «الأبوكريفاويّة»» (المشكوك في صحّتها)، لأنّها لم يتضمّنها الكتاب المقدّس كما نعرفه اليوم.

لكن ما السبب؟

في العام ١٧٠ الميلاديّ، انعقد مجمعٌ من الأساقفة لاتّخاذ قرار حول النصوص التي يجب أن تشكّل جزءاً من العهد الجديد. المعيار كان بسيطاً جدّاً: يجب ضمّ أيّ شيء يُمكن العمل به لمحاربة الهرطقات والانقسامات

العقائديّة في ذلك العصر. اختيرت الأناجيل الأربعة التي نعرفها اليوم، وكذلك رسائل الرسل وكلّ ما حكم بأنه - إذا صحّ القول - «موافق» لما اعتقد الأساقفة أنّه يُشكّل العقيدة الأساسيّة للدين المسيحيّ. ويمكننا أن نجد المرجع لمجمع الأساقفة هذا، وللائحة الكتب المجازة، في القانون الكنسيّ الموراتوريّ. أمّا الكتب الأخرى، كتلك الموجودة في نجع حمّادي، فقد حُذفت، إمّا لأنّها خُطّت بأيدي نساء (كإنجيل مريم المجدليّة) أو لأنّها وصفت يسوعاً يسوعاً مُدركاً لمهمّته الإلهيّة، وهذا ما يجعل بالتالي عبوره الممات أقصر وأقلّ عذاباً.

* * *

في العام ١٩٧٤، اكتشف عالم الآثار الإنكليزي السير والتر ويلكينسون مخطوطة أخرى، مكتوبة هذه المرّة بلغاتٍ ثلاث: العربيّة والعبريّة واللاتينيّة.

ولإدراكه القوانين التي ترعى اكتشافات مماثلة في المنطقة، أرسل النصّ إلى قسم الآثار في متحف القاهرة. بعد ذلك بفترة وجيزة، أتاه جواب: حول العالم ١٥٥ نسخة من الوثيقة (ثلاث منها امتلكها المتحف) وكانت جميعها متماثلةً عملياً. أظهرت اختبارات الكربون-١٤ (المستعمل لتحديد عمر المادّة العضويّة) أنّ الوثيقة كانت حديثة العهد نسبيّاً، وتعود احتمالاً إلى العام ١٣٠٧ قبل الميلاد. كان من السهولة بمكان الاهتداء إلى منشئها وهو

مدينة عَكرا خارج الأراضي المصريَة. لذلك. لم تكن هناك قيود تحول دون إخراجها من البلاد. وقد حصل السير والتر على إذن خطّيّ من الحكومة المصريّة لإعادتها معه إلى إنكلترا (مرجع ١٩٠١/٣١٧/IFP-٧٥، تاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٧٤).

* * *

قابلتُ ابن السير والتر في العام ١٩٨٢. يوم عيد الميلاد. في بورثمادوغ في وايلز. أذكرحينذاك، أنّه ذكر المخطوطة التي اكتشفها والده، لكنّ أحداً منّا لم يولِ الموضوعَ أهمّيّة كبرى. حافظنا على علاقة وديّة على مرّ السنين، والتقينا في مناسبتين أخريين على الأقلّ، عندما زرتُ وايلز لترويج كتبي.

في ٣٠ نوفمبر ٢٠١١، تسلّمتُ نسخة من النصّ الذي كان قد ذكره في لقائنا الأوّل، وها أنا أنسخه هنا.

أودّ جدّاً أن أبدأ بكتابة الآتي:

«الآن، بعدَ أنْ شارفتْ حياتي نهايتها،
أتركُ لمن بعدي كلَّ ما تعلّمتُه أثناء
طوافي هذهِ الأرض. لعلّهم يستعملونَهُ خيراً».

يا للأسف، هذا غير صحيح. أنا في الحادية والعشرين من العمر فقط، منحني والداي الحبّ والتربية، وتزوّجتُ امرأةً أحبّها وتبادلني الحبّ. ولكن في الغد، ستتعهّد الحياة بتفرقتنا، وعلى كلٍ منّا أن ينطلق في سبيله بحثاً عن دربه الخاصّ، عن قَدَرِه، وعن طريقته في مواجهة الموت.

بالنسبة إلى عائلتنا، اليوم هو ١٤ يوليو ١٠٩٩. بالنسبة إلى عائلة يعقوب، صديق الطفولة الذي كنتُ ألعب معه في مدينة أورشليم هذه، إنّه العام ٤٨٥٩-هو يتبجّج على الدوام بإخباري أنّ الديانة اليهوديّة أعتق بكثير من ديانتي. أما بالنسبة إلى الفاضل ابن الأثير، الذي صرف حياته محاولاً تسجيل التاريخ الذي يصل الآن إلى خاتمته، فإنّ العام ٤٩٢ على وشك الانتهاء. لا نتّفق على التواريخ أو على الطريقة الفضلى لعبادة الله، لكنّنا نحيا بسلام معاً في كلّ النواحي الأخرى.

منذ أسبوع، عقد قادتنا اجتماعاً. الجنود الفرنسيّون متفوّقون علينا بالمطلق، وعِتادهم أفضل بكثير من عتادنا. كان أمامنا خيار واحد: مغادرة المدينة أو القتال حتّى الموت، لأنّنا مهزومون لا محالة. فقرّر معظمنا البقاء.

في هذه اللحظة، المسلمون محتشدون في ساحة المسجد الأقصى، وقرّر اليهود جمع جندهم في محراب داود؛ وكُلّف المسيحيّون، الذين يقطنون أحياءً شتّى، حماية الجزء الجنوبيّ من المدينة.

خارج الأسوار، نستطيع رؤية أبراج الحصار المبنيّة من سُفنٍ فُكّكت لهذا الغرض. وبناءً على تحرّكات العدوّ، نفترض أنّهم سيهجمون صباح الغد، مهرقين دماءنا باسم قداسة البابا، و«تحرير» المدينة، و«المشيئة الإلهيّة».

هذا المساء، في الساحة نفسها حيث، منذ ألف سنة، سلّم الحاكم الرومانيّ بيلاطس البنطيّ يسوع إلى الحشد لصلبه، احتشد رجال ونساء من كلّ الأعمار ليذهبوا إلى اليونانيّ، الذي نعرفه جميعاً باسم القبطيّ.

القبطيّ رجل غريب. عندما كان لا يزال مراهقاً، قرّر أن يغادر مدينته الأمّ أثينا سعياً وراء المال والمغامرة. انتهى به المطاف، إلى حدّ الجوع تقريباً، بطرق أبواب مدينتنا، وعندما رُحّب به، تخلّى تدريجاً عن فكرة الاستمرار في رحلته، وقرّر البقاء.

تمكّن من إيجاد عمل لدى إسكاف - وشأنه شأن ابن الأثير- شَرَعَ يُسجّل للجيلِ المقبل كلّ ما رآه وسمعه. لم يسعَ إلى اعتناق ديانة معيّنة، ولم يسعَ أحدٌ إلى إقناعه بخلاف ذلك. بالنسبة إليه، لسنا في العام ١٠٩٩ أو ٤٨٥٩، ولا حتّى في أواخر العام ٤٩٢. يؤمن القبطيّ بالحاضر فقط، وبما يدعوه «مويرا»- الإله المجهول - الطاقة الإلهيّة المسؤولة عن قانون أوحد، إذا ما خُرِق يوماً، فسَتُكتَب نهاية العالم.

إلى جانب القبطيّ، حضر بطاركة الديانات الثلاث التي كانت قد استوطنت أورشليم. لم يكن أيُّ ممثّلٍ حكوميّ حاضراً أثناء هذه الحادثة، فقد كانوا شديدي الانهماك في إعداد التحضيرات النهائيّة لمقاومةٍ نعتقد أنّها ستُثبت كلّياً عدم جدواها.

قال القبطيّ: «منذ قرون سحيقة، حُكم على رجل في هذه الساحة وأعدم. على الدرب إلى اليمين. فيما كان يتوجّه نحو هلاكه، مرّ بمجموعة من النسوة. عندما رآهنّ ينتحبن، قال: «لا تبكين عليّ، بل ابكين على أورشليم». لقد تنبّأ بما يحصل الآن. ابتداءً من الغد، سيتحوّل الانسجام إلى تنافر. وسيحلّ الأسى محلّ الفرح. وسيتنحّى السلام أمام الحرب التي ستستمرّ إلى مستقبل بعيد، أبعد من تصوّرنا».

لم يأتِ أحدٌ بكلمة، لأنّ أحداً من بيننا لم يكن يعرف ما كنّا نفعله هنا بالضبط. هل علينا أن نستمع إلى عِظة أخرى حول هؤلاء الغزاة الذين يطلقون على أنفسهم اسم «الصليبيّين»؟

للحظة، بدا القبطيّ وكأنّه يتلذّذ بالارتباك العامّ. ثمّ، وبعد صمتٍ طويلٍ، قال:

«بإمكانهم تدمير المدينة، لكن لا يمكن لهم تدمير كلّ ما علّمتنا المدينة إيّاه، لهذا من المهمّ ألّا تشهد هذه المعرفة المصير نفسه الذي ستشهده جدراننا ومنازلنا وشوارعنا. ولكن، أتدرون ما هذه المعرفة؟».

وإذْ لم يلقَ جواباً، تابع:

«هي ليست الحقيقة المطلقة عن الحياة والممات، بل هي مُعيننا على العيش وعلى مجابهة التحدّيات اليوميّة. هي ليست ما نتعلّمه من الكتب التي تساعدنا على مجرّد إضرام الجدالات العبثيّة حول ما حدث أو ما سيحدث؛ بل هي المعرفة التي تسكن قلوب الرجال والنساء الحسني النوايا».

قال القبطيّ:

«أنا رجل علم. مع ذلك، وعلى رغم أنني صرفتُ كلّ هذه السنين أرمّم الأثريّات وأصنّف الأشياء وأسجّل التواريخ وأناقش الناس في شؤون السياسة، لا أزال أجهل ما أقوله لكم. لكنّي سأسأل الطاقة الإلهيّة أن تطهّر قلبي. سوف تطرحون عليّ الأسئلة وسأجيب عنها. هذا ما دَرَجَ عليه معلّمو اليونان الإغريقيّة: كان تلامذتهم يسألون عن مشكلات لم يُراعوها من قبل وكان المعلّمون يجيبونهم».

سأل أحدُنا: «وما علينا فعله بإجاباتك؟».

«بعضُكم سيدوّن ما أقول. وآخرونُ سيتذكّرون كلماتي. المهمّ أنّكم الليلة ستنطلقون إلى زوايا العالم الأربع، وتُخبرون بما سمعتم. هكذا، ستُصان روح أورشليم. وذات يوم، سنقتدر على إعادة بنائها، لا مدينةً وحسب، بل مركزاً للمعرفة ومكاناً سيلقّه السلام مرّة أخرى».

قال رجل آخر: «كلّنا نعرف ما ينتظرنا في الغد. ألن يكون من الأفضل أن نتناقش في كيفيّة التفاوض على السلام أو التهيّؤ للمعركة؟».

نظر القبطيّ إلى رجال الدين بجانبه، ثمّ التفت من فوره إلى الحشد.

«لا يعرفُ أيٌّ منّا ما سيحمله الغد، لأنّ لكلّ يوم لحظاته الحسنة والأخرى السيّئة. لذا، عندما تسألون، فلْتغِبْ عن أذهانكم الجنود في الخارج، وليغادر الخوف أنفسكم. مهمّتنا ألّا نترك لمن سيرثون الأرض سِجلاً عمّا حصل في هذا اليوم، سيتولّى التاريخ ذلك. لذا، سنتحدّث عن حياتنا اليوميّة، عن المشقّات التي كان علينا مواجهتها. هذا ما سيهمّ المستقبل، إذ أعتقدُ أنّ مجرى الأمور لن يتغيّر كثيراً في السنين الألف المقبلة».

ثـمَّ قال جاري يعقوب:

«حدّثنا عن الهزيمة».



أَوَتشعرُ ورقةٌ، وهي تسقط من على غصنِ شجرةٍ شتاءً، بأنَ البرد هزمها؟

تقول الشجرة للورقة: «هذه دورة الحياة. قد تخالين أنّك فانية، لكنّكِ فيَّ تحيين. بفضلك أنا حيّة، لأنّني أستطيع أن أتنفّس. وبفضلكِ أيضاً شعرتُ بأنّني محبوبة، لأنّني تمكّنت من تأمين الظلّ للمسافر التَعِب. نُسغكِ نُسغي، ونحن واحدٌ».

أَوَيشعرُ رجلٌ بالهزيمةِ بعدما صرفَ سنين في التهيّؤ لتسلّق أعلى جبال العالم، ثم اكتشف عند بلوغه الجبل أنّ الطبيعة لفّت القمّة بسُحب عاصفة؟

يقول الرجل للجبل: «أنتَ لا تريدني هذه المرّة، لكنّ الطقس سيتغيّر، ويوماً ما سأبلغ القمّة. في هذه الأثناء، ستظلّ قابعاً ههنا بانتظاري».

أَوَيقولُ شابٌّ، صدّته حبيبته الأولى، إنّ الحبّ غير موجود؟

يقول الشابّ لنفسه: «سأجد أُخرى تتفهّم شعوري تفهّماً أفضل. وعندئذٍ سأكون سعيداً لباقي أيّام حياتي».

في دورة الطبيعة، النصر والهزيمة لا وجود لهما. هناك الحركة فقط.

يكافح الشتاء لكي يكون مُهيمناً، ولكنّه في النهاية، يُجبَر على تقبّل نصر الربيع الذي يحمل معه زهراً وسعادة.

يود الصيف أن يطيل دفء أيّامه إلى الأبد. لاعتقاده بأنّ الدفء يفيد الأرض، ولكن في النهاية، عليه أن يتقبّل إطلالة الخريف الذي يتيح للأرض أن ترتاح.

يرعى الغزال العشب، ويلتهم الأسد الغزال. هي ليست مسألة بقاء الأقوى، بل إنّها طريقة الله في أن يظهر لنا دورة الحياة والقيامة.

وفي داخل تلك الدورة، الرابح والخاسر لا وجود لهما، هناك مراحل فقط لا بدّ من عبورها. عندما يتفهّم قلب الإنسان ذلك، يكون حرّاً، قادراً على تقبّل الأوقات الصعبة، ولا توهمه لحظات المجد.

كلاهما إلى زوال. واحدهما سيخلِفُ الآخر. والدورة ستستمرّ إلى حين نتحرّر من كسوة اللحم، ونلاقي الطاقة الإلهيّة.

لذا، عندما يكون المقاتل في الحلبة - طوعاً أو بسبب قدرٍ أبعد من إدراكنا وضعه هناك - قد يغمر الفرح روحه إزاء احتمال القتال الذي أمامه. وإذا تشبّث بكرامته وشرفه، فلن يُهزم أبداً حتّى وإن خسر القتال. لأنّ روحه ستكون مصونة.

لن يُلقي باللوم على أحد لما يحصل له. فمنذ أن أُغرم للمرّة الأولى وجُوبِه بالصدّ، عرف أنّ ذلك لم يضع حدّاً لقدرته على أن يحب. وما يصحّ في أمور الحبّ، يصحّ في الحرب.

خسارةُ معركةٍ، أو خسارة أيّ شيء اعتقدنا أنّنا امتلكناه، ستحمل إلينا لحظات من التعاسة، لكن مع زوال هذه اللحظات، سنكتشف أنّ القوّة المستترة داخل كلٍ منّا، هي قوّة ستفاجِئُنا وتزيد احترامنا لذواتنا.

ننظر حولنا، ونقول لأنفسنا: «لقد نجوت». وكلماتنا ستبهجنا.

فقط أولئك الذين لا يفلحون في إدراك قوّتهم الداخليّة، سيقولون: «لقد خسرت»، وسيحزنون.

سواهم، ومع أنّهم يتألّمون لهزيمتهم، ويشعرون بالمهانة من أقوال المنتصرين فيهم، سيسمحون لأنفسهم بأن يذرفوا بعض الدموع، لكنّهم لن يشعروا بالأسى تجاه أنفسهم. هم عارفون بأنّ الأمر مجرّدُ وقفةٍ في خضمّ القتال، وأنّهم الآن، أمام عقبة.

يُصغون إلى مكنونات قلوبهم. هم مدركون أنّهم متوتّرون، أنّهم خائفون. يستعرضون حياتهم ويكتشفون أنّهم على رغم الخوف لا يزال إيمانهم نابضاً في أرواحهم، يحفّزهم للمضيّ قُدماً.

يحاولون فهم ما أخطؤوا فيه، وما أصابوه. يستغلّون لحظة الهزيمة ليرتاحوا، ويضمّدوا جروحهم، ويضعوا استراتيجيّات جديدة، ويتجهّزوا بشكل أفضل.

بعدئذٍ، يبزغ فجر يوم آخر لتطرق معركة جديدة أبوابهم. لا يزالون في خوف، ولكن عليهم التصرّف، فإمّا أن يتصرّفوا وإمّا أن يظلّوا ممدّدين أرضاً. ينتصبون ويواجهون الخصم، وفي ذاكرتهم المعاناة التي قاسوها والتي لا يرغبون في أن يقاسوها بعد اليوم.

هزيمتهم السابقة تحتّم نصرهم هذه المرّة، لأنّهم لا يريدون أن يعانوا الألم نفسه من جديد.

لكن، إذا لم يكن النصر حليفهم هذه المرّة، فسيكون لهم تالياً. وإن لم يأتِ تالياً، ففي المرّة التي تليها. المهمّ أن نقف بعد السقوط.

وِحدَهُ من يستسلم، يُهزَم. والباقون جميعهم ظافرون.

وسيحلّ اليوم الذي تصبح فيه هذه اللحظات الصعبة مجرّد حكايات تروى بفخرٍ على مسمع من يودّون الاستماع، وسيستمعون بوقار ويتعلّمون أموراً ثلاثة:

كن صبوراً في انتظار اللحظة المناسبة لكي تتصرّف.

لا تدع الفرصة التالية تَفوتك.

كن فخوراً بنُدَبِك.

النُدَبُ ميداليّاتٌ تَوَسَمها الجلدُ، وسيهابها أعداؤكم لأنّها دليل على تجربتكم الطويلة في مضمار المعارك، وهذا ما يُفضي غالباً بالآخر إلى محاورتكم واجتناب الخلافات.

صوت النُدَب يعتلي صوت السيف الذي سبّبها.

عندما رأى تاجرٌ أنَ القبطيّ قد أنهى الحديث، قال:

«صِف لنا المهزومين».



لكن الغد يأتي، ويطفو في أذهانهم السؤال الذي يصيب بالشلل: «ماذا لو لم يجدِ هذا نفعاً؟».

وهكذا، لا يقدمون على شيء.

الويل لأولئك الذين لم يتلقوا ضربة يوماً! فلا ظفر لهم في هذه الحياة.

فأجاب:

المهزومون هم أولئك الذين لا يعرفون الفشل.

الهزيمة تعني خسارتنا لمعركة معيّنة أو حرب. أمّا الفشل، فرادعٌ لنا عن مواصلة القتال.

تحلّ بنا الهزيمة عندما نفشل في الحصول على أمرٍ نريده بشدّة. أمّا الفشلُ، فيمنعنا من أن نحلم. شعاره هو: «لا تتوقّع شيئاً فلا يخيب ظنّك».

تنتهي الهزيمة متى خُضنا معركة أُخرى. أمّا الفشلُ، فلا منتهى له: هو خيارٌ نتّخذه مدى الحياة.

الهزيمة هي لأولئك الذين، على رغم مخاوفهم، يعيشون بحماسةٍ وإيمان.

الهزيمة هي للبواسل. وحدهم سيعرفون شرف الخسارة وفرح الربح.

لم آتِ لأقول لكم إنّ الهزيمةَ جزءٌ من حياتكم: كلّنا على معرفة بذلك. وحدهم المهزومون يعرفون الحبّ، لأنّنا في كنف الحبّ نخوض معاركنا الأولى - ونخسرها في العموم.

جئتُ أقول لكم إنّ ثمّة أشخاصاً لم يعرفوا الهزيمة يوماً.

هم أولئك الذين لم يقاتلوا يوماً.

لقد تمكّنوا من اجتناب النَدَب، والمذلّة، والشعور بالعجز، وتلك اللحظات التي حتّى المحاربون يشكّكون خلالها في وجود الله.

قد يقول أمثالهم بفخرٍ: «لم أخسر معركةً يوماً». لكنّهم في المقابل، لن يتمكّنوا من القول: «ربحتُ معركة».

وقلّما يأبهون. في عالمهم، يعتقدون أنّهم منيعون. يشيحون بنظرهم عن الظلم والمعاناة، يشعرون بالأمان لأنّهم غير مجبرين على مجابهة التحدّيات اليوميّة التي تواجه من يخاطرون في اجتياز حدودهم.

لم يتناهَ إلى سَمْعِ هؤلاء كلامٌ من مثل «الوداع» أو «ها قد عُدت، عانقني عناقاً جيّاشاً، عناقَ من فقدني ووجدني من جديد».

أولئك الذين لم يعرفوا الهزيمة يوماً، يبدون سعداء وفوقيّين، أرباب حقيقةٍ لم يجهدوا ولو في رفع إصبعٍ بغيةَ بلوغها. إنّهم دائماً إلى جانب القويّ. هم كالضباع، ينهشون فضلاتِ خلّفتها الأسود.

يعلّمون أولادهم: «لا تتورّطوا في الخلافات، فخسارتكم محتومة. لا تُسِرّوا لأحدٍ بشكوككم، فتنأى عنكم المشكلات. إن تهجّم أحدٌ عليكم، فلا تشعروا بالإهانة، ولا تَبخسوا أنفسكم في ردّ الهجوم. في الحياة أمورٌ أهمّ».

وفي سكون الليل، يخوضون معاركهم الخياليّة: أحلامهم التي لم تتحقّق، الظلم الذي أشاحوا بنظرهم عنه؛ لحظات الجُبن التي تمكّنوا من سترها أمام الآخرين - وبقيت سافرة لهم - والحبّ الذي مرّ على دربهم بمُقلتين وامضتين، الحبّ الذي عيّنه الله لهم، لكنّهم كانوا أجبن من أن يعتنقوه.

ويقطعون وعداً على أنفسهم: «الغد سيكون مختلفاً».

قالت شابّة، كانت توشك على الزواج
بابن أحد أغنى أغنياء المدينة، وأوجبَ
عليه الفرار:
«حدّثنا عن العُزلة».



فأجاب:

بلا عُزلةٍ، لن يطيل الحبّ بقاءه إلى جانبكم.

فالحبّ يحتاج إلى الراحة أيضاً، لكي يتمكّن من أن يطوف السموات ويتجلّى بأشكال أخرى.

بلا عُزلة، لا تتمكّن نبتةٌ أو حيوانٌ من البقاء حيّين، ولا تخصب ذرّة تراب مهما يكن زمنها، ولا يستطيع ولدٌ أن يتعلّم ما في الحياة، ولا يقدر فنّانٌ أن يكون خلّاقاً، ولا ينمو عملٌ ويتطوّر.

ليستِ العزلةُ غياباً للحبّ، بل مُكَمّلٌ له.

ليستِ العزلةُ غياباً للرفقة، بل هي اللحظة التي تتحرّر فيها روحنا لتحدّثنا، وتساعدنا على اتّخاذ قرارٍ في شأن حياتنا.

طوبى لمن لا يخشون العزلة، لمن لا يخشون أن تكون نفسهم رفيقتهم، لمن لا يبحثون بيأس، على الدوام، عن فعل شيءٍ، شيءٍ يستمتعون به، شيءٍ يحكمون عليه.

ما لم تنفردوا بأنفُسِكم يوماً، فلن تعرفوها.

وإذا لم تعرفوا أنفسَكم، ستبدؤون بخشية الفراغ.

الفراغ لا وجود له. ثمّةَ عالمٌ شاسعٌ يستتر في روحنا، ينتظر لحظة

اكتشافه. هو هناك، بقوّته التي لا يشوبها شائبة، بل هو قدير وجديد لدرجة أنّنا نخشى الاعتراف بوجوده.

إنّ حقيقة اكتشاف ذواتنا تجبرنا على تقبّل واقع أنّ بمستطاعنا المضيّ أبعد ممّا نظنّ. وهذا يُرعبنا. الأفضل ألّا نخاطر. ولنا دوماً خيار القول: «لم أفعل ما كان عليّ أن أفعله، لأنّهم لم يسمحوا لي بفعله».

هذا أزوَخ. آمن. وهو في الوقت نفسه، مساوٍ لرفضكم حياتكم الخاصّة.

الويل لمن يفضّلون أن يصرفوا حياتهم قائلين: «لم تسنح لي أيّ فرصة!».

لأنّهم، بمرور كلّ يوم، سيُمعنون في الغرق في بئر قيودهم، وسيحين وقتٌ تكون فيه قوّتهم في الحضيض، فيعجزون عن التسلّق وإعادة اكتشاف النور اللامع الذي يبرق من الفتحة فوق رؤوسهم.

طوبى لمن يقولون: «لست شجاعاً بما يكفي».

لأنّهم يعلمون أنّ الذنب ليس ذنب سواهم. وعاجلاً أو آجلاً، سيجدون الإيمان اللازم لمواجهة العزلة وخباياها.

* * *

في نظر أولئك الذين لا يخشون العزلة، التي منها تتجلّى كلّ الخبايا، سيكون لكلّ شيء طعمٌ مختلف.

في العزلة، سيكتشفون الحبَّ الذي كان محتملاً أن يمرّ على غفلة منهم. في العزلة، سيفهمون الحبَّ الذي هجرهم ويحترمونه.

في العزلة، سيتمكّنون من أن يقرّروا في شأن الحبّ المفقود، فيسألوه أن يعود، أو يتركوه ببساطة في سبيله ليسلك مساراً جديداً.

في العزلة، سيتعلّمون أنّ قول «لا»، لا يعني دوماً افتقاراً إلى سماحة النفس، وأنّ قول «نعم» ليس الفضيلة دوماً.

وأولئك الذين في وحدة الآن، ما عليهم أبداً أن يخافوا من كلمات الشيطان: «أنتَ تهدر وقتك».

أو من كلمات إبليس، الأقوى من سابقتها: «لا أحد يبالي بك».

الطاقة الإلهيّة تصغي إلينا في حديثنا إلى الآخرين، وهي تصغي أيضاً إلى سكوننا وصمتنا وقدرتنا على تقبّل العزلة على أنّها بركة.

وفي تلك اللحظة، يملأ نور الطاقة كلّ ما حولنا ويساعدنا على أن نرى لزوم وجودنا، والفرق الهائل الذي يحدثه حضورنا على الأرض في مسرى عملها.

وعندما نبلغ درجة التناغم هذه، نلقى ما يفوق طِلبتنا.

* * *

ومن المهمّ لأولئك الذين تكدّرهم العزلة، أن يتذكّروا أنّنا، في أعظم أوقات حياتنا أهمّيّة، نحن دائماً وحدنا.

كما الطفل الذي يغادر رحم امرأة: قلّما يهمّ عدد الحاضرين، فالقرار النهائيّ بالعيش يعود له وحده.

وكما الفنّان في عمله: فمن أجل أن يكون عمله جيّداً فعلاً، يحتاج إلى السكون والإنصات إلى لغة الملائكة فقط.

وكمثلنا جميعاً، عندما نجد أنفسنا وجهاً لوجه نحن و«الضيف الثقيل»، الموت: سنكون جميعاً وحيدين في اللحظة الأهمّ والأكثر مهابة من وجودنا.

وكما أنّ الحبَّ هو شرطٌ إلهيّ، العزلة هي أيضاً شرطٌ بشريّ. وبالنسبة إلى أولئك الذين يفهمون معجزة الحياة، هاتان الحالاتان متعايشتان بسلام.

تقدّم فتى، ممّن اختيروا لمغادرة المدينة، وشقّ رداءه قائلاً:

«تعتقد مدينتي أنّني لست على قدر القتال. أنا بلا فائدة».



فأجاب:

يقول بعض الناس: «لا أحد يحبّني». لكن حتّى في حالات الحبّ اللامتبادل، يبقى الأمل دائماً أن يكون متبادلاً ذات يوم.

يكتب آخرون في مفكّراتهم اليوميّة: «عبقريّتي لا تلقى اعترافاً، موهبتي لا تلقى تقديراً، أحلامي لا تلقى احتراماً». لكن، هم أيضاً، لديهم أملٌ أنّ الأمور ستتغيّر بعد كفاحات كثيرة.

يصرف آخرون أيّامهم يقرعون الأبواب، يقولون: «أنا أبحث عن عمل»، وهم يعرفون أنّهم إن صبروا، فسيُفتح لهم في النهاية.

* * *

لكن ثمّة أولئك الذين ينهضون كلّ صباح بصدرٍ مُطبَق. هم لا يسعون وراء الحبّ أو التقدير أو العمل.

يقولون لأنفسهم: «أنا بلا فائدة. أعيش لأنّ عليّ أن أستمرّ في الحياة، لكنْ لا أحد، لا أحد مطلقاً، يأبه لما أفعله».

في الخارج، الشمس مشعّة، هم محاطون بعائلتهم، يحاولون الحفاظ على قناع السعادة، لأنّهم في نظر الآخرين، لديهم كلّ ما حلموا به. لكنّهم

مقتنعون أنّ أحداً من الموجودين لا يحتاج إليهم، إمّا لأنّهم يافعون ومن يكبرونهم لديهم اهتمامات أُخرى، أو لأنّهم شيوخ وأفراد العائلة الأصغر سنّاً منهم يبدون غير مهتمّين بما لديهم ليقولوه.

يخطّ الشاعر بضعة أسطر، ثمّ يرميها وهو يفكّر: «لن تهمّ أحداً».

يصل الموظّف إلى العمل، ويقوم بتكرار المهمّات نفسها التي أدّاها في اليوم السابق. يعتقد أنّه، إن صُرف، فلن يلاحظ أحدٌ غيابه.

والشابّة التي تفصّل لنفسها فستاناً وتُعاني الأمرّ في تصميم كلّ تفصيل، وترتديه إلى حفلة، تقرأ في عيون الآخرين قولهم: لست أجمل أو أقبح من أيّ من الشابّات الحاضرات، فستانك مجرّد رقم من ملايين الفساتين حول العالم، حيث، في هذه اللحظة، تُقام حفلات مماثلة - بعضها في قصور فاخرة، وبعضها في قرى صغيرة حيث الجميع يعرف الجميع ويتبادلون تعليقات حول ما ترتديه الفتيات الأخريات. وتقول لنفسها، لم يعلّق أحد على ما ارتديت ولم يلفت انتباه أحد. لم يكن جميلاً ولا قبيحاً، كان مجرّد فستان كغيره.

بلا فائدة.

يدرك اليافعون أنّ العالم مليءٌ بمشكلات هائلة يحلمون بحلّها، لكنّ أحداً لا يبالي بوجهات نظرهم. يُقال لهم: «أنتم لا تعرفون حقيقة العالم. أصغوا إلى كباركم، وستكوّنون فكرة أفضل عمّا عليكم فعله».

الكبار اكتسبوا خبرة ونضجاً، تعلّموا في ما يتعلّق بصعوبات الحياة، كيفيّة سلوك الدرب الوعر، لكن متى يتاح لهم الوقت لتعليمها لسواهم، لا

أحد يهتمّ. يُقال لهم: «العالم قد تغيّر. عليكم أن تواكبوا الحاضر وتُصغوا إلى اليافعين».

لا يكترث الشعور بعدم الفائدة، للعمر، ولا يستأذن، بل يعيث أرواح الناس، ويكرّر ويكرّر: «لا أحد يبالي بك، أنتَ نكرة، العالم لا يحتاج إلى وجودك».

وفي محاولةٍ يائسة لإضفاء معنىً على الحياة، يتوجّه كثيرون إلى الدين، لأنّ الكفاح باسم إيمانٍ ما، هو دوماً تبرير لفعلٍ جلل قد يحوّل مجرى العالم. يقولون لأنفسهم جميعاً: «نحن نصنع صنيع الله».

ويُصبحون تابعين متفانين، ثمّ إنجيليّين، فمتعصّبين في النهاية.

لا يفهمون أنّ الدين وُجد لتشارك غُموض الكون والعبادة، وليس لقمع الآخرين وردّهم عن دينهم. الحياة أعظم تجلٍ لمعجزة الله. الليلة، سأنتحب من أجلك، أيا أورشيلم، لأنّ استيعاب الاتّحاد الإلهيّ يوشك أن يتبدّد للسنين الألف المقبلة.

* * *

سلوا زهرةً في حقل: «أتشعرين بأنّك مفيدة؟ في النهاية كلّ ما تفعلينه هو إنتاج الزهر نفسه مراراً وتكراراً».

ستُجيب الزهرة: «أنا جميلة، والجمال سبب عيشي».

سلوا النهرَ: «أتشعر بأنّك مفيد، بما أنّ كلّ ما تفعله هو التدفّق في الاتّجاه نفسه دوماً؟».

سيُجيب النهر: «لا أسعى إلى أن أكون مفيداً، أسعى إلى أن أكون نهراً».

في مرأى الله، لا شيء في هذا العالم بلا فائدة. لا تسقط ورقة من شجرة، ولا تسقط شعرة من رؤوسكم، ولا تفنى حشرة لأنّها لم تكن ذات فائدة.

لكلّ شيء سبب لوجوده.

حتّى أنت، أيّها السائل. «أنا بلا فائدة» هي الإجابة عن سؤالك.

سرعان ما سيُمسي هذا السؤال سُمّاً يجري فيك وسيُميتك وأنت حيّ، حتّى لو كنت لا تزال تمشي وتأكل وتنام وتحاول أن تجد بعض السّلوى الممكنة.

لا تحاولوا أن تكونوا ذوي فائدة. حاولوا أن تكونوا أنفسكم: حسبكم هذا، وهذا ما يُحدِثُ فرقاً.

لا تمشوا بخطىً أسرع أو أبطأ من خطى روحكم. فروحكم ستعلّمكم فائدة كلّ خطوة تتّخذونها. أحياناً، قد تكون المشاركة في معركة كبرى هي ما سيساعدكم على تغيير مسار التاريخ. ولكن أحياناً، بإمكانكم أن تفعلوا ذلك بمجرّد ابتسامة من ثغركم، بلا سبب، ابتسامة لمارٍ ما في الشارع.

بلا نيّة أو قصد، قد تكونون جلبتم الخلاص لحياة غريب عنكم تماماً، ظنّ هو أيضاً أنّه بلا فائدة، ولعلّه كان على استعداد لقتل نفسه، إلى أن مدّته ابتسامتكم بأمل جديد وبالثقة.

* * *

حتّى وإن كنتم تعاينون حياتكم بتفاصيلها، وتُعيدون عيش كلّ لحظة قاسيتم فيها، وتعرّقتم وابتسمتم فيها تحت الشمس، فلن تعرفوا بالضبط متى كنتم ذوي فائدة لشخص آخر.

ليست الحياة بلا فائدة البتّة. كلّ روح نزلت الأرض موجودة فيها لسبب.

من يساعدون سواهم مساعدة حقّة، لا يحاولون أن يكونوا مفيدين، بل هم ببساطة يعيشون حياة مفيدة. نادراً ما يقدّمون النصائح، بل يكونون قدوة.

قوموا بأمر واحد: عيشوا الحياة التي طالما أردتم أن تعيشوها. تفادوا من انتقاد الآخرين وركّزوا في تحقيق أحلامكم. قد لا يبدو ذلك شديد الأهمّيّة لكم، لكنّ الله، الذي يرى كلّ شيء، يعرف أنّ المثل الذي أعطيتموه يساعده على تحسين العالم. وكلّ يوم، سيُغدق عليه مزيداً من البركات.

* * *

وعندما يصل «الضيف الثقيل»، ستسمعونه يقول:

«من العدل أن تسأل: «إلهي، إلهي، لـمَ تركتني؟».لكن الآن، تحلّ الثانية الأخيرة من حياتك على الأرض، وسأخبرك بما رأيت: وجدتُ المنزل نظيفاً، والطاولة مهيّأة، والحقول محروثة، والزهر باسماً. وجدتُ كلّ شيء في

مكانه الصحيح، تماماً كما يجب ان يكون. لقد فهمتَ أنّ صغار الأمور مسؤولة عن التغييرات الكبيرة.

ولهذا، سأحملك إلى الجنّة».

ثـمّ قالت امرأة خيّاطة تدعى «الميرا»:

«أمكن لي أن أرحل قبل وصول الصليبيّين،

ولو فعلت، لكنت الآن أعمل في مصر،

ولكن طالما اعتراني خوف التغيير».

فأجاب:

نخاف التغيير لاعتقادنا أنّنا نعرف عالمنا، بعد الكثير من الجهد والتضحية.

ومع أنَ هذا العالم قد لا يكون أفضل العوالم، ومع أنّنا قد لا نكون راضين تماماً به، فهو على الأقلّ لن يقدّم لنا أيّ مفاجآت مزعجة.

لن نخطأ فيه.

ومتى اقتضت الحاجة، سنُجري تعديلات طفيفة عليه لكي يستمرّ كلّ شيء على ما هو عليه.

نرى أنّ الجبال تلازم مكانها دوماً. نرى أنّ الشجر المكتمل النموّ، لدى نقله من تربة إلى تربة، يموت.

ونقول: «أريد أن أكون كالجبال والشجر: صلباً ومحترماً».

مع أننّا، في الليل، نستفيق مفكّرين: «أتمنّى لو كنت كالطيور، التي يمكنها أن تزور دمشق وبغداد وترجع متى تشاء».

أو: «أتمنّى لو كنت كالريح، لأنّ أحداً لا يدري مصدرها ووجهتها، ويمكنها أن تغيّر اتّجاهها من دون أن تُضطرّ يوماً إلى أن تشرح السبب».

ولكن، في اليوم التالي، نتذكّر أنّ الطيور تهرب من الصيّادين ومن

الطيور الأكبر حجماً، وأنّ الريح قد تعلق أحياناً في إعصار وتدمّر كلّ ما يحيط بها.

من الجميل أن نحلم بأنّنا سيكون لنا متّسع من الوقت مستقبلاً لكي نسافر، ويوماً ما، سنسافر. هذا يُبهجنا لأنّنا نعرف أنّنا قادرون على القيام بما يفوق ما نفعله. الأحلام غير محمّلة بالأخطار. الخطر يكمن في أن تحوّلوا أحلامكم إلى حقيقة.

* * *

ولكنّ اليوم الذي يطرق فيه القَدَر بابكم سيأتي. قد يكون نقراً لطيفاً من ملاك الحظّ السعيد، أو ذاك القرع الجليّ من الضيف الثقيل. سيقولان: «تغيّر الآن! لا الأسبوع المقبل، ولا الشهر المقبل، ولا السنة المقبلة. الملائكة تقول «الآن!».

ونُصغي دوماً إلى الضيف الثقيل،فنغيّر كلّ شيء لأنّنا نتوجّس منه خوفاً: نغيّر قريتنا، وعاداتنا، وأحذيتنا، وطعامنا، وسلوكنا. ولا يسعنا أن نقنع الضيف الثقيل بالسماح لنا بأن نراوح مكاننا. الأمر مبتوت.

ونُصغي أيضاً إلى ملاك الحظّ السعيد، لكنّنا نسأله: «إلى أين سيُفضي بنا هذا؟».. «إلى حياة جديدة»، يأتينا الجواب.

ونفكّر: «في حياتنا بعض المشكلات، ولكنّها قابلة للحلّ مهما استغرق الأمر. علينا أن نكون قدوة لأهالينا ومعلّمينا وأولادنا، وأن نبقى على السير في الصراط المستقيم.

يتوقّع منّا جيراننا أن نعلّم الجميع فضيلة المثابرة، مكافحة الشدائد وتخطّي المعوّقات».

ونذهب بأنفسنا مذهب الفخر. نُمتدَح لأنّنا نأبى أن نتغيّر، ونواصل المسير في الوجهة التي اختارها لنا القَدَر.

خطأ.

لأنّ الدرب المستقيم هو درب الطبيعة، المتغيّرة أبداً، ككثبان الرمل في الصحراء.

أولئك الذين يخالون أنّ الجبال لا تتغيّر هم مخطئون: فالجبال ولدت خارج الزلازل، عرّتها الريح والمطر، وهي تتغيّر قليلاً كلّ يوم، حتّى لو كنّا لا نلاحظ ذاك التغيير.

الجبال تتغيّر ويسرّها الأمر. هي تتطارح الحديث قائلة: «من الجيد ألّا نبقى على حالنا طوال الوقت».

أولئك الذين يخالون أنّ الأشجار لا تتغيّر هم مخطئون. على الأشجار أن تتقبّل عُريها شتاءً ودثارها صيفاً. هي تمتدّ أبعد من بقعة زرعها، لأنّ بذارها تنشرها الريح والعصافير.

والأشجار سعيدة. هي تقول لصغارها المبرعمة من حولها: «خِلتُ أنّني مجرّد شجرة مفردة، لكن الآن أرى أنّني جمعٌ».

* * *

الطبيعة تقول لنا: «تغيّروا!».

وأولئك الذين لا يخشون ملاك الحظّ السعيد، يفهمون أنّ عليهم المضيّ، على رغم الخشية، على رغم شكوكهم، على رغم الاتّهامات المضادّة، على رغم الأخطار.

هم يواجهون قِيَمَهم وأحكامهم المسبقة. يُنصتون إلى نصيحة محبّيهم الذين يقولون: «لِمَ تفعل هذا؟ لديك كلّ ما تحتاج إليه: حبّ والديك، وزوجتك، وأولادك، والعمل الذي استغرقت دهراً للحصول عليه. لا تجازف في أن تتحوّل إلى غريب في أرض الغرباء».

إنّهم، يُجازفون في اتّخاذ الخطوة الأولى، تارةً بداعي الفضول، وتارةً بداعي الطموح، ولكنّهم في العموم، يخطونها لشعورهم بشوقٍ جامح إلى المغامرة.

وعند كلّ منعطف على الدرب، ينتابهم الخوف أكثر فأكثر، ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، يُفاجئون أنفسهم: هم أقوى وأسعد.

الفرح، إحدى البركات الأساسيّة التي يُنعم بها علينا القدير. إذا كنّا سعداء، فهذا يعني أنّنا على الدرب الصحيح.

وهكذا، يذوي الخوف تدريجاً، لأنّه لم يتغذَّ على قدَرْ الأهمَيّة التي بدا عليها.

وفيما نخطّ خطانا الأولى على الدرب، يُلازمنا سؤال واحد: «هل قراري أن أتغيّر سيأتي بالمعاناة للآخرين؟».

إذا كنت تحبّ أحداً، فأنت إذاً تريد له أن يسعد. قد تشعر بالخوف

عليه في البداية، لكن سرعان ما يتنحّى هذا الشعور أمام الافتخار برؤية من تحبّ يقوم بما يريده، ويذهب إلى حيث حلم دوماً بالذهاب.

لاحقاً، قد يبدأ باختبار إحساس بالهجر والعجز.

لكنّ المسافرين يصادفون آخرين على الدرب، آخرين يشعرون مثلهم تماماً. فيما يتبادلون الكلام، يُدركون أنّهم ليسوا وحيدين، فقد أصبحوا رفاق سفرٍ ويتشاركون في حلولهم للمعوّقات المختلفة. ويشعرون جميعاً بأنّهم أصبحوا أكثر حكمة وأكثر حياةً ممّا ظنّوا يوماً.

وفيما يستلقون في خيمهم، ساهدين، وقد جثمت التعاسة والندم فوق صدورهم، يقولون: «في الغد، وفي الغد فقط، سأخطو خطوة أُخرى. أستطيع أن أعود، لأنّني أعرف الدرب، ولكنّ خطوة إضافيّة لن تحدث فرقاً كبيراً».

* * *

إلى أن يحلّ يومٌ، من دون إنذار، يكفّ فيه الدرب عن تجربة المسافر، ويشرع في معاملته بسخاء. وتستلذّ روح المسافر المُثقلة بجمالات المنظر الجديد وتحدّياته.

وتصبح كلّ خطوة خطوةً واعية، بعد أن كانت، إلى تلك اللحظة، آليّة بحتة.

وبدل أن تحدّثه عن ملاذ الأمان، هي تعلّمه الفرح في مواجهة تحدّيات جديدة.

ويواصل المسافر سفره. لا يشتكي من الملل، بل من التعب. ولكنّه عند تلك المرحلة، يرتاح، يمتّع ناظريه بالمنظر ثمّ يمضي.

وبدل أن يصرف حياته كاملة في تدمير الدروب التي خشي أن يمشيها، يروح الدرب الحاليّ يروق له.

حتّى وإن كانت وجهته النهائيّة لا تزال غامضة. حتّى وإن، في لحظة من اللحظات، اتّخذ قراراً خطأ، فالله يرى شجاعته ويُنزل عليه الوحي اللازم لتصويب الأمر.

ليس الحدث هو ما يُقلقه بعد، بل الخوف من أنّه لن يدري كيف يتصرّف إزاءه. ومتى قرّر أن يتبع دربه ولا بديل أمامه، يكتشف ما يملك من قوّة إرادة، وتنحني الأحداث أمام قراراته.

«الصعوبة» اسمٌ لأداةٍ عتيقة أُوجِدت لمجرّد مساعدتنا على تحديد هويّتنا.

تُعلِّم الأديان أنّ الإيمان والتحوّل هما السبيل الوحيد للاقتراب من الله.

يُظهر لنا الإيمان أنّنا لسنا وحيدين.

ويساعدنا التحوّل على حبّ الغموض.

وعندما يبدو كلّ شيء حالكاً، ونشعر بالوحدة والعجز، لن ننظر إلى الخلف، خشية أن نرى التغيُّرات التي طرأت على روحنا، بل سننظر إلى الأمام.

لن نخشى ما سيحدث في الغد، لأنّ عيناً ساهرة كانت تحرسنا أمس.

وسيُجانبنا ذاك الحضور الإلهيّ نفسه إلى الأبد.

ذاك الحضور الإلهيّ سَيُؤوينا بعيداً من المعاناة.

أو سيمدّنا بالقوّة لمواجهتها بكرامة.

سنمضي أبعد ممّا نعتقد. سنبحث عن المكان الذي فيه تولد نجمة الصبح. وسنتفاجأ لدى وصولنا، بأنّ الأمر كان أسهل ممّا تصوّرنا.

والضيف الثقيل يزور غير المتغيّرين والمتغيّرين. لكن، بوسع المتغيّرين أن يقولوا: «كانت حياتي مثيرة للاهتمام. ولم أبذّر نِعَمي».

وإلى من يعتقدون أنّ في المغامرات مخاطرة، أقول: جرّبوا الرتابة، فهي ستقتلكم أسرع.



وسأل أحدُنا:

«عندما يبدو كلّ شيء قاتماً، علينا أن نرفع معنويّاتنا. فهات حدّثنا عن الجمال».



فأجاب:

يقول الناس دوماً: «الجمالُ جمالُ الخُلُق لا الخَلْق».

هذا غير صحيح.

فلو كان صحيحاً، فلِمَ يصرف الزهر طاقةً هائلةً في جذب النحل؟ ولـمَ تستحيل قطرات المطر قوسَ قزح عندما تلامس خدّ الشمس؟

هذا لأنّ الطبيعة توّاقة إلى الجمال، ولا تشعر بالرضى إلّا عندما يُمجَّد الجمال. جمالُ الخَلْق هو جمال الخُلُق المرئيّ، يتجلّى في النور الذي يفيض من مقلتينا. لا يهمّ إذا كان ذوق إنسان سيّئاً في الملبس، أو إذا كان لا يوافق معاييرنا للأناقة، أو إذا كان هذا الإنسان غير آبه لترك انطباع لدى الآخرين. العينان مرآة الروح، تعكسان كلّ ما يبدو مستتراً، وكالمرآة، هما تعكسان أيضاً الناظر إليهما. لذا، متى نظر سود النفوس إلى عينَي أحد ما، رأوا قباحتهم هم.

* * *

الجمال موجود في كلّ مخلوق، لكنّ الخطر يكمن في واقع أنّنا، لكوننا بشراً، غالباً ما نكون منقطعين عن الطاقة الإلهيّة. فنسمح لأنفسنا بأن

تنجرَ إلى ظنون الآخرين. نُنكِرُ جمالنا الخاصّ لأنّ الآخرين يعجزون عن الاعتراف به أو لأنّهم يأبون الاعتراف. وبدل أن نتقبّل ذواتنا بما هي عليه، نحاول تقليد ما نراه حولنا. نحاول أن نكون ما يعتقد الآخرون أنّه «جميل» وتدريجاً، تنحلّ روحنا، وتهزل إرادتنا، وتخبو كلّ إمكاناتنا على جعل العالم مكاناً أجمل.

ننسى أنّ العالم صورة لما نريد له أن يكون.

نكفّ عن كوننا ضوء القمر، ونُمسي البركة التي تعكسه. في الغد، ستتبخّر المياه مع الشمس. وكلّ ذلك، لأنّ أحداً ما قال لنا يوماً: «أنت قبيح». أو «إنّها فاتنة». وبهاتين الكلمتين، اختلس منّا كلّ الثقة بأنفسنا. ونصبح بشعين ومكدَّرين.

* * *

في تلك اللحظة، قد نستقي الراحة من «الحكمة» المزعومة، من تراكم فِكَرٍ كوّمها أشخاصّ يرغبون في تحديد العالم، بدل احترام غموض الحياة. هذه «الحكمة» تنطوي على كلّ القواعد غير الضروريّة، وعلى الأنظمة والمقاييس المعنيّة بإرساء معيارٍ سلوكيّ.

بحسب الحكمة الزائفة، يجب ألّا نهتمّ بالجمال لأنّه سطحيّ وفانٍ.

هذا غير صحيح. فكلّ الكائنات المخلوقة، من الطيور إلى الجبال، من الزهر إلى الأنهر، تعكس مُعجزة الخَلْق.

إذا قاومنا تجربة السماح لآخرين بتحديد هويّتنا، فسنتمكّن تدريجاً من جعل الشمس، داخل روحنا، تشعّ إلى خارج.

يعبرنا الحبّ ويقول: «لم ألحظك من قبل».

وتُجيب روحك: «كن أكثر انتباهاً إذاً، لأنّني هنا. كانت نسمة واحدة كافية لتغسل الرماد من عينيك، لكن بما أنّك تعرّفتني الآن، فلا تهجرني مجدّداً، لأنّنا جميعاً راغبون في الجمال».

الجمال موجود في الاختلاف لا في التشابه. من منّا قد يتخيّل زرافة بعنق قصير أو نبتة صبّار بلا أشواك؟

إنّ عدم التناسق في قمم الجبال المحيطة بنا هو ما يجعلها مهيبة. إذا حاولنا جعلها جميعها متشابهة، فلن تفرض احترامها علينا.

اللاكمال هو ما يذهلنا ويجذبنا.

عندما ننظر إلى شجرة أرز، لا نفكّر: «يجب أن تكون كلّ الأغصان متساوية الأطوال». بل نفكّر: «يا لقوّتها».

عندما نرى ثعباناً، لا نقول: «هو يزحف، فيما أنا أمشي منتصب القامة». بل نفكّر: «لعلّه صغير، لكنّ جلده ملوّن، وحركته أنيقة، وهو أقوى منّي».

عندما يعبر الجمل الصحراء، ويوصلنا إلى وجهتنا، لا نقول: «هو أحدب وأسنانه قبيحة». بل نفكّر: «هو يستحقّ محبّتي مقابل إخلاصه وعونه. لولاه، لما استطعتُ استكشاف العالم».

المغيب أجمل دوماً متى وشّحته سُحبٌ غير متناسقة، فهكذا فقط يمكنها أن تعكس مختلف الألوان التي منها تنبثق الأحلام والأشعار.

وا أسفاه على من يفكّرون: «لستُ جميلاً، ولهذا لم يطرق الحبّ بابي».

في الواقع، طرق الحبّ بابهم، ولكن عندما فتحوا، لم يكونوا مستعدّين لاستضافته.

كانوا منهمكين في محاولة تجميل أنفسهم، في حين أنّهم كانوا بديعين بما هم عليه.

كانوا يحاولون تقليد الآخرين، في حين أنّ الحبّ كان يبحث عن الأصالة.

كانوا يحاولون أن يعكسوا ما أتاهم من الخارج، غافلين عن أنّ النور الأسطع يشعّ من الداخل.

وقال شابٌ كان عليه الرحيل تلك الليلة:

«لم أكن يوماً واثقاً بالوجهة التي عليّ أن أسكنها».

فأجاب:

كالشمس، تنشر الحياة نورها في كلّ الاتّجاهات.

وعندما نولد، تولد فينا رغبة في الحصول على كلّ شيء دفعة واحدة، ونعجز عن التحكّم بالطاقة التي أُعطينا.

لكن، إذا أردنا أن نُشعل ناراً، فعلينا أن نركّز كلّ أشعّة الشمس في بقعة واحدة.

النار هي السرّ الأعظم الذي كشفت الطاقة الإلهيّة عنه للعالم. ليست نار الإشعال فحسب، بل النار التي تحوّل القمح إلى خبز.

ثمّ تحلّ لحظة نحتاج فيها إلى تركيز نارنا الداخليّة بصورة تكتسب فيها حياتنا معنىً.

ونسأل السموات: «لكن أيّ معنى؟».

يشطب بعض الناس هذا السؤال من فورهم: إنّه الملل، الذي يؤرّقكم والذي لا إجابة سهلة عنه. هم أولئك الذين سيعيشون غدهم لاحقاً وكأنّه أمسهم.

وعندما يصل الضيف الثقيل، سيقولون: «كانت حياتي قصيرة جدّاً، فبذّرتُ نعمتي».

* * *

وآخرون سيتقبّلون السؤال، لكن بما أنّهم يجهلون الإجابة، سيشرعون في قراءة ما جاء عن من سبق لهم أن واجهوا هذا التحدّي. وفجأة، يجدون إجابة يحكمون بأنّها صواب.

وعندما يحصل ذلك، يباتون عبيداً لتلك الإجابة. يصوغون قوانين هدفها إكراه الآخرين على تقبّل ما يعتقدونه السبب الوحيد للوجود. يبنون معابد تبرّره، ومحاكم لمن يرفضون ما يعتبرونه هم الحقيقة المطلقة.

أخيراً، هناك أولئك الذين رأوا فجأة أنّ السؤال فخّ: فلا إجابة عنه.

وبدل هدر الوقت في مصارعة الفخ، يقرّرون التصرّف. يستحضرون طفولتهم ويبحثون عمّا غمرهم بالحماسة حينذاك ويكرّسون حياتهم له- غافلين عن نصيحة الكبار لهم.

هذا لأنّ الحماسة هي النار المقدّسة.

ورويداً يكتشفون أنّ أفعالهم متّصلة بقوّة دافعة غامضة أبعد من مدارك البشر. ويحنون رؤوسهم علامة وقار لهذا الغموض، ويتلون صلوات لئلّا ينحرفوا عن درب يجهلونه، لكنّهم اختاروا أن يمشوه بدافع الشعلة التي تتّقد في قلوبهم.

يستوحون من حدسهم متى أمكنهم، ويلجؤون إلى المعارف متى خانهم الحدس.

يبدون شديدي التشوّش. وأحياناً يتصرّفون كالمجانين، ولكنّهم ليسوا مجانين. فقد اكتشفوا الحبّ الحقيقي والإرادة.

وهذان الأمران يكشفان عن الهدف والاتّجاه اللذين عليهم اتّباعهما.

الإرادة شفافة، والحبّ صافٍ، وخطواتهما محدّدة. في لحظات الشكّ أو التعاسة، لن ينسوا القول: «أنا أداة. إسمح لي أن أكون أداةً قادرة على إظهار مشيئتك».

لقد اختاروا سبيلهم، ولعلّهم يعتقدون فقط، أنّ هدفهم هو أن يجدوا نفسهم قبل وصول الضيف الثقيل. هذه روعة من يواصل سيره قُدماً، متخذاً من الحماسة ومن الوقار الذي يكنّه لغموض الحياة مرشده الوحيد، يكون سبيله جميلاً وحِمله خفيفاً.

قد يكون الهدف كبار الأمور أو صغارها، قد يكون بعيداً أو قريباً، لكنّ المسافر يسعى وراءه باحترام وإجلال. هو يعلم معنى كلّ خطوة، وما تكلّفه من جهد ومراس وحدس.

* * *

هو لا يركّز في الهدف المرجوّ وحسب، بل في كلّ ما يجري من حوله. وعليه غالباً أن يتوقّف لأنّ قوّته تخونه.

في لحظات مماثلة، يظهر الحبّ ويقول: «تخال أنّك تتّجه إلى نقطة معيّنة، لكنّ مبرّر وجود هذا الهدف يكمن في حبّك له. إسترح قليلاً، لكن ما إن تقدر، إنهض وتابع سيرك. فمنذ أن عرف هدفك أنّك تتّجه إليه، انطلق راكضاً للقائك».

أولئك الذين يشطبون السؤال، وأولئك الذين يجيبون عنه، وأولئك الذين يفهمون أنَ الطريقة الوحيدة للمجابهة هي بالتصرّف، سيواجهون جميعاً المعوّقات نفسها، وستسعدهم الأمور نفسها، لكن، وحده من يتقبّل خطّة الله بتواضع وشجاعة يعرف أنّه على الدرب الصحيح.

قالت امرأةٌ، كانت تتقدّم في السنّ
ولم تجد زوجاً لها:
« جاوزنـي الحبّ دوماً».



فأجاب:

لكي تتمكّنوا من سماع كلام الحبّ، عليكم أن تسمحوا للحبّ بأن يدنو منكم.

مع ذلك، عندما يدنو منّا، نخشى ما قد يقوله لنا، لأنّ الحب حرٌّ ولا يخضع لحكم إرادتنا أو صنائعنا.

كلّ العشّاق يعرفون ذلك، لكنّهم يرفضون قبوله. يعتقدون أنّ بإمكانهم استدراج الحبّ عبر الخضوع والقوّة والجمال والثراء والدموع والابتسامات.

لكنّ الحبّ الحقيقي هو الحبّ الذي يستميل ولا يُستمال.

الحبّ يتحوّل، الحبّ يشفي. لكنّه أحياناً ينصب أشراكاً قاتلة ويؤدّي إلى هلاك مَن قرّر أن يستسلم له بكلّيته. كيف للقوّة التي تحرّك الكون وتبقي على النجوم في أمكنتها أن تكون خلّاقة ومدمّرة في آن؟

تعوّدنا التفكير أنّ ما نعطيه يوازي ما نأخذه، لكنّ من يحبّون متوقّعين حبّاً متبادلاً، يهدرون وقتهم.

الحبُّ فعلٌ إيمانيّ، وليس تبادلاً.

التناقضات هي التي تجعل الحبّ ينمو. والخلافات هي ما يسمح للحبّ بملازمتنا.

الحياة قصيرة كي نحبس كلمات مهمّة مثل «أحبّك» في قلوبنا.

لكن لا تتوقّعوا دوماً أن تسمعوها تقال لكم. نحن نحبّ لأنّنا في حاجة إلى الحبّ. وإلّا، فسيفقد الحبّ كلّ معانيه وستكفّ الشمس عن السطوع.

تحلم وردة بالاستمتاع برفقة النحل، لكنّ النحل لا يأتي. فتسألها الشمس:

«أولم تتعبي من الانتظار؟».

تجيب الوردة: «بلى، لكن إن أطبقتُ بتلاتي، فسأذبل وأموت».

ومع هذا، وحتّى عندما لا يأتي الحبّ، نظلّ منفتحين على حضوره. أحياناً، عندما تبدو الوحدة وكأنّها على وشك أن تسحق كلّ شيء، يكون الحبّ الطريقة الوحيدة لمقاومتها.

* * *

الحبّ هو هدفنا الأسمى في الحياة. والباقي لا شيء.

نحتاج إلى أن نحبّ. حتّى وإن قادنا الحبّ إلى أرض بحيراتها من دموع، إلى ذلك المكان السرّيّ الغامض، أرض الدموع!

الدموع تعبّر عن نفسها. وعندما نشعر بأنّنا بكينا حتّى جفّت دموعنا، سيواصل الدمع انهياره. وعندما نعتقد أنّ قدر حياتنا هو أن نمشي درباً طويلا عبر «وادي المآسي»، تنضب دموعنا فجأة.

ومردّ هذا استمرارنا في جعل قلوبنا منفتحة على رغم الألم، وإدراكنا

أنّ الشخص الذي تركنا لم يحمل الشمس معه، ولم يخلّف وراءه ظلمة. فقد رحل ببساطة، ومع كلّ وداع يبزغ أملٌ جديد.

الأفضل أن نحبَّ ونفترق، من أن لا نحبّ أبداً.

* * *

خِيارنا الحقيقيّ الوحيد هو أن نغوص في غموض تلك القوّة الجامحة. لنا أن نقول: «لقد عانيتُ الأمرّ من قبل، وأعلم أنّ هذا الحبّ إلى زوال»، فيعود الحبّ أدراجه. ولكن إذا فعلنا ذلك، نُصبح أحياءً أمواتاً.

هذا لأنّ الطبيعة هي تجلٍ لمحبّة الله. وبغضّ النظر عن صنائعنا، تواصل الطبيعة حبّها لنا. لذلك دعونا نحترم ما تعلّمنا إيّاه الطبيعة ونفهمه.

نحن نحبّ لأنّ الحبَّ يُعتقنا، ونقول أموراً لم نتحلَّ يوماً بشجاعة البوح بها حتّى لأنفسنا.

ونتّخذ قراراً أطلنا تأجيله.

نتعلّم قول «لا» من دون التفكير في أنّ تلك الكلمة ملعونة إلى حدّ ما.

نتعلّم قول «نعم» من دون الخوف من العواقب.

ننسى كلّ ما تعلّمناه عن الحبّ، لأنّ كلّ لقاء مختلف عن الآخر، ويأتي محمّلاً بشجونه ونشواته.

نُنشد بصوتٍ أعلى في بُعد الحبيب، ونهمس قصائد في قربه، حتّى وإن كان لا يُصغي ولا ينتبه لأيٍ من صرخاتنا أو همساتنا.

لا يجوز أن نُغمض أعيننا عن الكون ثمّ نتذمّر: «الظلام حالك». بل علينا أن ننظر بمجامع العين، عارفين أنّ النور قد يُرشدنا إلى ما لم نحلم به. وهذا كلّه جزءٌ من الحبّ.

قلبنا مشرَع للحبّ، ونستسلم له بلا خوف، لأنّه لم يعد لدينا ما نخسره.

ثمّ نكتشف، لدى عودتنا إلى المنزل، أنّ ثمّة من كان ينتظرنا، يبحث عمّا كنّا نبحث عنه، ويشعر بالقلق والاشتياق أنفسهما.

هذا لأنّ الحبّ كالماء المتحوّل غيماً: يُرفَع إلى السماء حيث يمكنه أن يرى كلّ شيء من بعيد، مُدركاً أنّ عليه العودة إلى الأرض يوماً ما.

لأنّ الحبّ كالغيمة المتحوّلة مطراً: تُنزَل إلى الأرض حيث تُروي الحقول.

الحبّ مجرّد كلمة، إلى حين نقرّر أن ندعه يستحوذ علينا بكلّ قوّته.

الحبّ مجرّد كلمة، إلى حين يصل مَن يسبغ عليه معنىً.

لا تستسلموا. وتذكّروا أنّ المفتاح الأخير في حاملة المفاتيح هو الذي يفتح الباب دوماً.

لكن، يخالفه شابٌ في الرأي:

«كلامك جميل، لكنّ خِياراتنا، في الحقيقة محدودة. سبق للحياة والمجتمع أن خطّطا مصيرنا».

وأضاف رجلٌ مُسنٌّ:

«ولا يسعني أن أعود وأستعيد لحظاتٍ ضاعت».

فأجاب:

ما سأقوله قد لا يكون نافعاً عشيّة غزوٍ آتٍ. مع ذلك، سجّلوا كلامي لكي يعرف الكلّ يوماً، كيف عشنا في أورشليم.

* * *

بعد التفكير لبرهة، تابع القبطيّ:

لا يسع أحداً العودة، لكنّ الكلّ قادر على المضيّ قُدماً.

وفي الغد، عندما تشرق الشمس، كلّ ما عليكم قوله لأنفسكم هو:

سأفكّر في هذا اليوم على أنّه اليوم الأوّل من حياتي.

سأنظر إلى أفراد عائلتي بدهشة وافتتان، مسروراً لمعرفتي بأنّهم إلى جانبي، نتشارك بصمت في هذا الشأن الذي كثر الحديث عنه وقلّ فهمه، عن الحبّ.

سأطلب مرافقة أوّل قافلة تلوح في الأفق، من دون سؤالها عن وجهتها. وسأتركها، ما إن يلفتني أمر أكثر تشويقاً.

سأمرّ بمتسوّل، يستعطي منّي المال. قد أعطيه مالاً أو قد أتابع طريقي لاعتقادي أنّه سيبذّره على الشرب، وفيما أفعل ذلك، سأسمع شتائمه وأعلم أنّها ببساطة طريقته في التواصل بيني وبينه.

سأمرّ بأحد يحاول هدمَ جسرٍ. قد أحاول منعه أو قد أدرك أنه يفعل ذلك، لأن أحداً ليس بانتظاره في الطرف المقابل. وأنّها طريقته في إقصاء الوحدة.

سأنظر إلى كلّ شيء وكلّ شخص، وكأنّني أراه للمرّة الأولى. خصوصاً صغار الأمور التي تعوّدتها، وقد نسيت إلى حدّ بعيد السحر الذي يحوط بها. كرمال الصحراء مثلاً، التي تحرّكها طاقة أعجز عن فهمها، لأنّني أعجز عن رؤية الريح.

وبدل أن أدوّن الأمور التي لا يُحتمل أن أنساها، على قطعة جلد الماعز التي ترافقني أينما ذهبت، سأكتب قصيدة. حتّى وإن لم أكن قد كتبت قصيدة من قبل، وقد لا أكتبها ثانيةً، سأعرف على الأقلّ أنّني امتلكت الشجاعة يوماً لكي أجسّد مشاعري كلمات.

عندما أصل قرية صغيرة أعرفها تمام المعرفة، سأدخلها من طريق مختلفة. سأبتسم، وسيقول قاطنوها واحدهما للآخر: «لا بدّ أنّه مجنون، لأن الحرب والدمار جعلا من الأرض جرداء».

لكنّي سأظلّ أبتسم، إذ يسرّني أن يعتقدوني مجنوناً. إبتسامتي هي طريقتي في القول: «باستطاعتكم تدمير جسدي، لكنّكم أعجز من تدمير روحي».

الليلة، قبل الرحيل، سأصرف وقتاً في فرز ركام الأمور التي لم أتحلّ بالصبر من قبل لتنظيمها. وسأجد أنّ فيها بعضاً من تاريخي. كلّ الرسائل، والملاحظات، والقصاصات والإيصالات ستنبض حياةً، وتخبرني

حكايا غريبة، عن الماضي وعن المستقبل، عن كلّ الأمور المختلفة في العالم، وكلّ الدروب التي مشيت، وكلّ المداخل والمخارج في حياتي.

سأرتدي قميصاً غالباً ما أرتديه، لأنني سألاحظ للمرّة الأولى ممّا هو مصنوع. سأتخيّل اليدين اللتين نسجتا القطن، والنهر الذي عند ضفّته ولدت أنسجة النبتة. سأفهم أنّ هذه الأمور التي لم تعد مرئيّة الآن، شكّلت جزءاً من تاريخ قميصي.

حتّى ما تعوّدته - حتّى الحذاء الذي بعد انتعاله مطوّلاً أضحى امتداداً لقدميّ - سأنتعله في غموض الاكتشاف.

بما أنّني منطلق إلى المستقبل، ستساعدني علامات الاهتراء الباقية على حذائي من أيّام تعثّري في الماضي.

لعلّ كلّ ما تلمسه يداي، وتراه عيناي، ويتذوّقه فمي، يكون مختلفاً ولكن على حاله. هكذا، كلّ تلك الأمور ستكفّ عن كونها حياةً راكدة، وستشرح لي بدلاً من ذلك، سبب ملازمتها لي كلّ هذا الوقت، وستكشف لي عن المعجزة في أن تخالجني ثانيةً عواطف أخمدتها الرتابة.

سأشرب بعضاً من شايٍ لم أتذوّقه من قبل، لأنّ آخرين قالوا لي إنّه كريه المذاق. سأمشي شارعاً لم أمشه من قبل، لأنّ آخرين قالوا لي إنّه تافه. وسأعرف هل سأودّ العودة أو لا.

إذا كان يوم غدٍ مشمساً، أودّ أن أنظر إلى الشمس كما يجب للمرّة الأولى.

وإذا كان ملبّداً بالغيوم، أودّ أن أراقبها كي أرى الاتّجاه الذي تسلكه.

أفكّر دوماً أنّني لا أملك وقتاً لذلك، أو أنّني لا أتنبّه له بما يكفي. ولكن في الغد، سأركّز في الاتّجاه الذي تسلكه الغيوم أو في إشعاعات الشمس أو الظلال التي تولّدها.

فوق رأسي سماءٌ حاكت البشريّة جمعاء حولها، وعلى مدى آلاف السنين، سلاسل من الشروحات العقلانيّة.

سأنسى كلّ شيء تعلّمته عن النجوم، وستتحوّل مرّة ثانية إلى ملائكة أو أولاد أو أيّ شيء أشعر بأنّني أؤمن به في تلك اللحظة.

وفّر لي الزمن والحياة غَمرة من الشروحات المنطقيّة لكلّ شيء، لكنّ روحي تتغذّى بالغموض. أحتاج إلى الغموض، أحتاج إلى رؤية صوت إله غاضب في دويّ رعد، حتّى وإن اعتبر كثيرون من بينكم هذا الأمر هرطقة.

أودّ أن أملأ حياتي من جديد بالخيال الواهم، لأنّ إلهاً غاضباً هو أغرب وأرهب وأكثر تشويقاً من ظاهرةٍ جاء فسّرها الحكماء.

للمرّة الأولى، سأبتسم من دون الشعور بالذنب، لأنّ الفرح ليس خطيئة.

للمرّة الأولى، سأجتنب كلّ مصدرٍ للمعاناة، لأنّ المعاناة ليست فضيلة.

لن أتذمّر من الحياة، قائلاً: كلّ شيء هو نفسه دوماً، ولا يسعني فعل شيء لتغييره. هذا لأنّني أعيش هذا اليوم وكأنّه يومي الأوّل، وطوال دوامه، سأكتشف أموراً لم أعرف حتّى بوجودها.

حتّى وإن كنتُ قد عبرت الأماكن نفسها مرّات لا تحصى من قبل،

وقلتُ «صباح الخير» للأشخاص أنفسهم، فـ«صباح الخير» لهذا اليوم ستكون مختلفة. لن تكون مجرّد عبارة من عبارات التهذيب، بل شكلاً من أشكال النعم، على أمل أنّ كلّ من أحدّثه سيفهم أهمّيّة أن نكون أحياء، حتّى متى كانت المآسي تهدّد بأن تطمرنا.

سأنتبه لكلمات الأغنية التي ينشدها المغنّي الجوّال في الشارع، حتّى وإن كان الآخرون لا يصغون لأنّ أرواحهم مُثقلة بالخوف. تقول الموسيقى: «الحبُّ حاكمٌ، لكنّ أحداً لا يعرف مكان عرشه، عليك أن تُذعن للحبّ أوّلاً لكي تعرف موقع ذاك المكان السرّيّ».

وسأتحلّى بالشجاعة كي أفتح بابي على الحَرم الذي يُفضي إلى روحي.

عسى أن أنظر إلى ذاتي، كما لو أنّها المرّة الأولى التي نتواصل فيها أنا وجسدي وروحي.

عسى أن أقتدر على تقبّل ذاتي كما أنا: شخص يمشي ويشعر ويتكلّم كالجميع، لكنّه على رغم شوائبه، مِقدام أيضاً.

عسى أن تذهلني إيماءاتي بأبسط أشكالها، كما لو أنّني أحدّث غريباً؛ عسى أن تذهلني أكثر عواطفي اعتياديّة، كما لو أنّني أشعر بالرمل يلامس وجهي مع هبوب الريح من بغداد؛ عسى أن تذهلني أرقّ اللحظات، كما حين أشاهد زوجتي نائمة إلى جانبي وأحاول أن أتخيّل ما تحلم به.

وإذا كنت وحدي في السرير، فسأتّجه إلى النافذة، وأرفع بصري إلى السموات، وأتيقّن أنّ الوحدة كذبة، لأنّ الكون موجود برفقتي.

وعندئذٍ، سأكون قد عِشتُ كلّ ساعةٍ من يومي كما لو كانت مفاجأة دائمة لي، لهذه «الأنا»، التي لم يوجِدها والدي أو والدتي أو المدرسة، بل كلّ ما اختبرته حتّى الآن، والذي نسيته فجأة، لكي أكتشف وجهه المتجدّد.

وحتّى لو كان هذا آخر أيّامي على الأرض، فسأستمتع به إلى أقصى حدّ، لأنّني سأحياه ببراءةِ طفل، كما لو أنّني كنت أفعل كلّ شيء للمرّة الأولى.

وسألت زوجة تاجر:

«حدّثنا عن الجنس».

فأجاب:

يتهامس الرجال والنساء لأنَهم حوّلوا حركةً مقدّسة إلى فعل خطيئة.

هذا هو العالم الذي فيه نحيا. وما دام اختلاس اللحظة الحاضرة من واقعيّتها خطيراً، فقد يكون عدم الانصياع أيضاً فضيلة، متى عرفنا كيف نستعمله.

إذا تجامع جسدان فحسب، فلا يكون هذا جنساً، بل مجرّد متعة. الجنس أبعد من ذلك.

في الجنس، يترافق الاسترخاء والتوتّر، وكذلك الألم واللذّة، والخجل والشجاعة، لكي يتخطّى المرء حدوده.

لكن كيف لحالات متناقضة أن تكون معاً بهذا الانسجام؟ ثمّة طريقة وحيدة هي: أن تستسلم.

لأنّ فعل الاستسلام يعني: «أثق بك».

لا يكفي تخيُّل كلّ ما قد يحدث إذا سمحنا لأنفسنا بالجماع روحيًا ولا جسديًا فقط.

لِنَغُصْ معاً إذاً في سيرنا على درب الاستسلام الخطير. قد يكون خطيراً. لكنّه الدرب الوحيد الأجدر بأن نتّبعه.

حتّى وإن أدّى ذلك إلى تغيّرات هائلة في عالمنا، فليس لدينا ما نخسره، لأنّنا بفتح الباب الذي يتّحد عنده الجسد والروح، سنربح الحبّ الكلّيّ.

دعونا ننس كلّ ما تعلّمناه عن مدى النُبل في فعل العطاء ومدى الوضاعة في الأخذ. بمفهوم معظم الناس. يقوم السخاء على العطاء فقط، لكنّ الأخذ فعل محبّة أيضاً. فأن نسمح لأحدٍ بأن يُسعدنا، يُسعده أيضاً.

عندما نكون شديدي السخاء في الفعل الجنسيّ، ويكون انشغالنا الأساسيّ هو لذّة شريكنا، فقد تذوي لذّتنا أو حتّى قد تنكسر.

عندما نكون قادرين على العطاء والأخذ بالقوّة نفسها، يشتدّ جسدنا اشتداد الوتر في القوس، لكنّ ذهننا يسترخي استرخاء السهم الذي يوشِك أن يُطلَق. دماغنا لن يعود مسؤولاً، وتمسي غريزتنا دليلنا الوحيد.

بلقاء الجسد والروح، تملأ الطاقة الإلهيّة كلّ شعرة منّا، كلّ شبر من بشرتنا، وليس فقط تلك الأجزاء التي يعتبرها معظم الناس إباحيّة، فنشعّ نوراً بلونٍ مختلف. والنهران أيضاً يلتقيان، ليصبحا نهراً واحداً أجمل وأقوى.

كلّ ما هو روحانيّ يتجلّى بشكله المرئيّ، وكلّ ما هو مرئيّ يتحوّل إلى طاقة روحانيّة.

كلّ شيء مُباح، إذا قبلنا بكلّ شيء.

أحياناً، يملّ الحبّ من التحدّث بنعومة. لذا، دعوه يتكشّف عن نفسه بكلّ روعته، يتوهّج كشمسٍ، ويدمّر غابات كاملة برياحه.

إذا استسلم أحد العاشقين استسلاماً كاملاً، فسيفعل الآخر مثله، لأنَ الإحراج سيكون قد تحوّل إلى فضوليّة، والفضوليَة تقودنا إلى استكشاف كلّ ما كنّا نجهله عن أنفسنا.

أنظروا إلى الجنس على أنّه هبةٌ، على أنّه طقس تحوّلٍ. وكما في كلّ طقس، ستحضر النشوة لتمجيد الخاتمة، لكنّها ليست الهدف الأوحد. المهمَ هو سيرنا مع شريكنا على درب أدّى بنا إلى أرضٍ مجهولة، حيث كان الذهب والبخور والـمُرَ لقيتنا.

إمنحوا المقدّس كلّ معانيه المقدّسة. وإن ساورتكم لحظات من الشكّ، فتذكّروا دوماً: لسنا وحيدين في لحظات مماثلة، فالطرفان يشعران بالشعِور نفسه.

* * *

إفتحوا صندوق أسرار نزواتكم بلا مهابة. فشجاعة الواحد، تشجّع الآخر.

العاشقان الحقيقيّان سيتمكّنان من دخول حديقة الجمال، من دون أن يخشيا أحكام الآخرين. لن يظلّا جسدين وروحين في لقاء، بل ينبوعاً واحداً يتدفّق منه ماء الحياة الحقيقيّ.

ستتأمّل النجوم جسدَي العاشقين العاريين، ولن يشعر العاشقان بالعار. ستعبرهما عصافير عن قرب، وسيحاكي العاشقان إنشادها. سترنو إليهما

حيوانات بريّة بحذر، لأنَ ما تراه أكثر بريّة ممّا هي عليه. وستحني رؤوسها لهما علامة وقار وخنوع.

وسيتوقَف الزمن، لأنّه في أرض «اللذّة المولودة من الحبّ الحقيقيَ»، كلّ شيء لا متناهٍ.

وعلّق أحد المحاربين الذي كان يتهيّأ
للموت في اليوم التالي، ولكنّه مع ذلك،
اختار المجيء إلى الساحة والإنصات إلى القبطي.
«تفرّقنا فيما أردنا الاتّحاد. والمدن التي
كانت في سبيل الغُزاة عانت عواقب
حربٍ لم تخترها. ماذا على الناجين
أن يُخبروا أولادهم؟».



فأجاب:

وُلدنا وحيدين وسنموت وحيدين. لكن، ما دمنا على هذا الكوكب، فعلينا تقبّل فعل إيماننا وتمجيده عبر الآخرين.

المجتمع هو الحياة: منه تتأتّى قدرتنا على البقاء. هكذا كانت الحال عندما اتّخذنا الكهوف منازل، ولا تزال هي الحال اليوم.

إحترموا من كبروا وتعلّموا إلى جانبكم. إحترموا من علّموكم. عندما يحلّ اليوم المناسب، قُصّوا قصصكم وعلّموا، بهذه الطريقة سيتمكّن المجتمع من مواصلة وجوده وستبقى تقاليدنا ثابتة.

ومن لا يُشرك آخرين في فرحه وإحباطاته لن يعرف يوماً خصاله وشوائبه معرفةً تامّة.

* * *

في هذه الأثناء، احذروا خطراً يهدّد كلّ المجتمعات: الناس ينجرّون إلى التصرّف تصرّفاً معيارياً، متّخذين قيودهم ومخاوفهم وأحكامهم المسبقة قدوة لهم.

هذا ثمن باهظ لا بدّ من دفعه، لأنّ تقبّل الآخرين لكم رهنٌ بإرضائهم.

وليس هذا دليل محبّة للمجتمع، بل دليل افتقاركم إلى حبّ ذواتكم.

لن تكونوا محبوبين ومحترمين من الآخرين ما لم تُحبّوا ذواتكم وتحترموها أوّلاً. لا تحاولوا أبداً إرضاء أحد، فإن فعلتم، فلن يحترمكم أحد.

إبحثوا عن أصدقاء وحلفاء من بين مَن يؤمنون بأنفسهم وبما يفعلون.

لا أقول لكم: إبحثوا عن أشخاص يفكّرون مثلكم. بل أقول: إبحثوا عن أولئك الذين يختلفون عنكم في التفكير والذين لن تتمكّنوا من إقناعهم بأنّكم على حقّ.

هذا لأنّ الصداقة أحد أوجه الحبّ الكثيرة، والحبّ لا يتأرجح بالآراء، الحبّ يتقبّل مرافقه بلا شروط ويسمح لكلّ واحد بأنْ ينمو على طريقته.

الحبّ فعل إيمان بشخص آخر، وليس فعل استسلام.

لا تلتمس الحبّ بأيّ ثمن، لأنّ الحبّ لا يُثمَّن.

أصدقاؤكم ليسوا من النوع الذي يخطف أنظار الكلّ، والذي يسلب الألباب، ويقولون: «ليس من أحد أفضل وأسخى وأنبل في أورشليم قاطبة».

أصدقاؤكم هم أولئك الذين لا ينتظرون حدوث الأمور كي يقرّروا الموقف الذي يجب اتّخاذه، هم يقرّرون بعفوية اللحظة على، رغم علمهم بما قد يحمل هذا الأمر من المجازفة.

هم أرواحٌ حرّة قادرة على تغيير المسار متى استدعت الحياة ذلك. هم يستكشفون دروباً جديدة، يروون مغامراتهم، ويُثرون بذلك المدينة كما القرية.

إن حدث أن اتّخذوا درباً خطأ وخطيراً ذات يوم، فلن يأتوا إليكم قائلين: «لا تفعل هذا أبداً».

سيقولون وحسب: «اتّخذت درباً خطأ وخطيراً ذات يوم».

هذا لأنّهم يحترمون حرّيَتكم، تماماً كما تحترمون حرّيَتهم.

إجتنبوا بأيّ ثمن أولئك الذين هم إلى جانبكم في أوقات التعاسة فقط، مقدّمين العزاء لكم. فما يقولونه لأنفسهم فعلاً: «أنا أقوى. أنا أعقل. لم أكن لأتّخذ ذاك الدرب».

تقرّبوا من أولئك الذين يكونون إلى جانبكم في أوقات السعادة، لأنّهم لا يكنّون غيرة أو حسداً في قلوبهم، بل الفرح فقط لرؤيتكم سعداء.

إجتنبوا أولئك الذين يعتقدون أنّهم أقوى منكم، لأنّهم في الواقع يُخفون هشاشتهم.

تقرّبوا من أولئك الذين لا يخشون الهشاشة، لأنّ لهم ثقة بأنفسهم ويعلمون أنّنا كلّنا، في مرحلة ما من مراحل حياتنا، نتعثّر؛ هم لا يفسرون ذلك ضعفاً، بل سِمة إنسانيّة.

إجتنبوا أولئك الذين يستطردون في الكلام قبل الفعل، أولئك الذين لا يخطون خطوة البتّة، من دون أن يتيقّنوا أوّلاً أنّها ستجني وقارا لهم.

تقرّبوا من أولئك الذين، عندما ارتكبتم خطأ، لم يقولوا لكم قطّ: «شخصيّاً، كُنت فعلتُ ذلك بطريقة أُخرى». فهم لم يرتكبوا ذاك الخطأ بعينه، ولهذا هم غير أهلٍ لإصدار الأحكام.

إجتنبوا أولئك الذين يُقيمون صداقات لمجرّد أن يحافظوا على مكانة اجتماعيّة ما، أو لفتح أبواب لم يتمكّنوا من فتحها بطريقة أخرى.

تقرّبوا من أولئك الذين يُهمّهم فتح باب واحد فقط - الباب إلى قلوبكم - لأنّهم لن يجتاحوا أرواحكم يوماً من دون موافقتكم، ولن يُطلقوا يوما سهماً مميتاً عبر ذاك الباب المفتوح.

الصداقة كنهرٍ: يتدفّق حول الصخور، يتكيّف مع الوديان والجبال، ويتحوّل أحياناً إلى بركة إلى حين تمتلئ الحفرة في الأرض، فيتابع جريانه.

وكما النهر لا ينسى أبداً أنّ البحر هو مصبّه، كذلك الصداقة لا تنسى أنّ سبب وجودها الوحيد هو محبّة الآخرين.

إجتنبوا أولئك الذين يقولون: «إنتهى، لن أُكمل». هذا لأنّهم أخفقوا في استيعاب أنّ الممات والحياة لا منتهى لهما؛ هما مجرّد مرحلتين من مراحل الأبديّة.

تقرّبوا من أولئك الذين يقولون: «كلّ شيء على خير ما يرام، كما هو، لكن لا يزال علينا أن نتابع». هذا لأنّهم يفهمون الحاجة إلى الذهاب أبعد من الأفق المعروف.

إجتنبوا أولئك الذين يجتمعون للتناقش، بجدّيّة وادّعاء، في قرارات يحتاج المجتمع إلى اتّخاذها. هم فهماء في شؤون السياسة، يخلّفون تأثيراً في الآخرين، ويحاولون إظهار مدى حكمتهم. لكنّهم لا يفهمون أنّ من المستحيل التحكّم حتّى بسقوط ولو شعرة من رؤوسكم. المعارف مهمّة، لكنّها تحتاج إلى أن تُبقي الأبواب والنوافذ مشرّعة للحدس واللامتوقّع.

تقرّبوا من أولئك الذين يغنّون، الذين يخبرون قصصاً، الذين

يستمتعون بالحياة، الذين تلمع عيونهم سعادة. فالسعادة مُعدية وستتدبَّر دوماً إيجاد حلّ، فيما يجد المنطق تفسيراً للخطأ المرتَكَب فقط.

تقرّبوا من أولئك الذين يسمحون لنور الحبّ بأن ينشر شعاعه من دون موانع أو أحكام أو مكافآت، ومن دون أن يدعوا الخوف من إساءة فهمهم، يعيق انتشاره.

مهما كان شعوركم، فانهضوا كلّ صباح واستعدّوا لتدعوا نوركم ينشر شعاعه.

ومن له عينان تريان، سيرى نوركم ويفتتن به.



قالت امرأة نَذَرَ أن غادرت منزلها، لاعتقادها بأنّ أحداً لا يكترث لها:

«علّمنا شيئاً عن الأناقة».

همهم الجميع في الباحة: «أيّ سؤال كهذا يُسأل عندما يوشك الغزو أن يجتاحنا، عندما توشك الدماء أن تُسفَك في كلّ شارع من المدينة؟!».

مع هذا، ابتسم القبطيّ ابتسامة لا استهزاء فيها، بل مليئة بالاحترام لشجاعة المرأة.

فأجاب:

تُرى الأناقة، خطأً، أنّها تعبير عن السطحيّة وحبّ المظاهر فحسْب. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة: بعض الكلمات أنيقة، بعضها جارح ومدمِّر، لكنّ جميعها يُكتب بالحروف نفسها. الزهر أنيق، حتّى عندما يكون مخفيًا بين العشب في المرج. الغزال أنيق عندما يعدو، حتّى لو كان هارباً من أسد.

الأناقة ليست صفةً خارجيّة، بل جزءٌ من الروح المرئيّ للآخرين.

وحتّى حين يجيش الشغف، لا تسمح الأناقة بتفكّك الروابط الحقيقيّة التي تصل بين اثنين.

ليست الأناقة في الملابس التي نرتدي، بل في الطريقة التي بها نرتديها.

هي ليست مهارتنا في التبارز، بل في الحوار الذي قد نتفادى به من حربٍ.

* * *

تتحقّق الأناقة متى اكتشفنا البساطة والتركيز، بعد التخلّص من كلّ الأمور السطحيّة، كلّما كانت وضعيّتنا أبسط، كانت أفضل، وكلّما كانت واعية، كانت أجمل.

لكن، ما البساطة؟ هي اجتماع القِيم الحقيقيّة في الحياة.

الثلج بهيّ لأنّ لونه واحد.

البحر بهيّ لأنّه يبدو مسطّحاً.

الصحراء بهيّة لأنها تبدو كأنّها من رمال وصخور فقط.

لكن، عندما نُمعِن النظر في كلّ منها، نكتشف مدى عمقها واكتمالها، ونُدرك صفاتها.

أبسط الأمور في الحياة هي الأروع. دعوها تتجلّ.

فكّروا في زنابق الحقل كيف تنمو، هي لا تكدح ولا تغزل. حتّى سليمان بكلّ مجده لم يتدثّر بمثلها.

كلّما اقترب القلب من البساطة، اقتدر على الحبّ بحرّيّة وبلا خوف. وكلّما أحبّ بلا خوف، اقتدر على إظهار الأناقة في كلّ حركة.

ليست الأناقة حسن ذوق. فلكلّ ثقافة مفهوم للجمال يختلف تماماً عن مفهوم أُخرى.

لكن، لكلّ قبيلة، لكلّ شعب، قِيم يربطانها بالأناقة: الضيافة، والاحترام، والسلوك الحسن.

التكبّر يجتذب الحقد والحسد. والأناقة تثير الاحترام والحبّ.

التكبّر يؤدّي بنا إلى إهانة رفقائنا، رجالاً ونساء. والأناقة تعلّمنا السير في النور.

التكبّر يعقّد الكلام، لاعتقاده بأنّ الذكاء حكر على قلّة مختارة. والأناقة تحوّل الفِكَر المعقّدة إلى أمر يسهل على الجميع فهمه.

عندما نمشي دربنا المختار. نمشي بأناقة، ونشعّ نوراً.

وتكون خطانا ثابتة، ونظراتنا حادّة، وتحرّكاتنا جميلة. حتّى في أصعب أوقاتنا، لا يرى الخصوم فيها علامات ضعف، لأنّ الأناقة درعٌ تحمينا.

الأناقة مقبولة ومثيرة للإعجاب، لأنّها لا تجهد في أن تكون أنيقة.

وحده الحبّ يُعطي شكلاً لِما لم نتمكّن، ماضياً، من أن نحلم به.

وحدها الأناقة تسمح لهذا الشكل بأن يتجلّى.



قال رجل كان يستيقظ باكراً على الدوام، لأخذ قطعانه إلى المراعي حول المدينة:

«أنتَ درستَ كي تتمكّن من قول هذا الكلام الجميل، لكن نحن، علينا العمل لإعالة عائلتنا».



فأجاب:

الشعراء يقولون كلاماً جميلاً. ويوماً ما، سيكتب أحدٌ:

لقد غفوتُ وحلَمْتُ أنَ الحياةَ سعادةٌ فقط.

استفقتُ واكتشفتُ أنَ الحياةَ واجبٌ.

أدّيتُ واجبي واكتشفتُ أنَ الحياةَ سعادةٌ.

العملُ تجلٍّ للحبّ الذي يربط بين الناس. عبره، نكتشف أنّنا عاجزون عن العيش من دون أناس آخرين، وأنّهم يحتاجون إلينا بالقدْر عينه.

العملُ نوعان.

الأوّل هو العمل الذي نؤدّيه لأنّ علينا هذا، كي نكسب قوتنا اليوميّ. في هذه الحال، الناس يبيعون وقتهم وحسب، غير مدركين أنّهم لن يتمكّنوا من إعادة شرائه.

يصرفون حياتهم كاملة وهم يحلمون باليوم الذي سيرتاحون فيه أخيراً. وعندما يحلّ ذلك اليوم، سيكونون قد تقدّموا في السنّ، فلا يستمتعون بكلّ ما على الحياة أن تقدّمه. مثل هؤلاء الناس لا يتحمّلون مسؤوليّة أفعالهم. يقولون: «لا خِيار لديّ».

مع ذلك، ثمّة نوع آخر من العمل، يؤدّيه الناس لكسب قوتهم اليوميّ أيضاً، لكنّهم يحاولون فيه ملء كلّ دقيقة بالتفاني وحبّ الآخرين. ندعو

هذا النوع الثاني من العمل «التَقْدِمة». مثلاً، قد يقوم شخصان بطهو الوجبة نفسها واستعمال المقادير نفسها بالضبط، لكنّ أحدهما يسكب الحبّ في ما يعمل، فيما الآخر يحاول ملء معدته فحسب.

وستسفر النتيجة عن اختلاف تامّ، مع أنّ الحبّ لا يُرى أو يوزَن.

ومن يؤدّ تقدمة، يُكافأ دوماً. وكلّما أشرك الآخرين في عاطفته، نمَتْ.

عندما حرّكت الطاقة الإلهيّة الكون، كان للكواكب والنجوم كلّها، للبحور والغابات كلّها، للوديان والجبال كلّها، فرصة المشاركة في التكوين. وحصل الأمر عينه لبني البشر.

قال بعضهم: «لا، لا نريد. لن نتمكّن من تصويب الأخطاء أو معاقبة الظلم».

وقال آخرون: «سأروّي الحقول بعرق جبيني، وستكون هذه طريقتي في عبادة الخالق».

ثمّ جاء إبليس وهمس كلماته المعسولة: «سيكون عليك أن تحمل هذه الصخرة إلى أعلى التلّ، وعندما تبلغه، ستتدحرج الصخرة عائدةً إلى أسفل».

وكلّ أولئك الذين صدّقوا كلام إبليس قالوا: « معنى الحياة الأوحد هو تكرار المهمّة نفسها مراراً».

وأولئك الذين لم يصدّقوا كلام إبليس قالوا: «إذاً، سأكنّ محبّة للصخرة التي عليّ أن أحملها إلى أعلى التلّ. هكذا، كلّ دقيقة أصرفها

بقربها ستكون دقيقة صرفتها بشكل أقرب إلى جانب من أحبّ».

التقدمة صلاةٌ لم تكتب. وككلّ الصلوات، هي تستدعي الانضباط، لا انضباط العبوديّة، بل الاختيار الحرّ.

لا هدف من القول: «كان القَدَرُ مُجحفاً بحقّي. فيما يتبع آخرون أحلامهم، ها أنذا أؤدّي عملي وأكسب عيشي فحسب».

القَدَرُ عادلٌ أبداً بحقّ الكلّ. كلّنا أحرار في أن نحبّ عملنا أو نكرهه.

* * *

عندما نحبّ، نجد فرحاً في نشاطنا اليومي، كالفرح الذي ينتاب أولئك الذين انطلقوا يوماً يفتّشون عن أحلامهم.

لا يمكن لأحدٍ أن يعرف مقدار أهمّيّة ما يقوم به أو عَظَمَتَه. فيه، يكمن غموض التقدمة وحلاوتها: هي المهمّة التي ائتُمنّا عليها، والتي علينا بدورنا أن نثق بها.

يمكن للعامل أن يزرع، لكنّه لا يستطيع أن يقول للشمس: «إسطعي أكثر هذا الصباح». لا يستطيع أن يقول للغيوم: «دعي السماء تمطر هذا المساء». عليه أن يقوم باللازم: حراثة الحقل ونثر البذار وتعلُّم موهبة الصبر عبر التأمّل.

سيختبر لحظاتٍ من اليأس عندما يرى أنّ حصاده فاسد، وسيشعر أنّ عمله كلّه ذهب سدىً. ومن انطلق بحثاً عن أحلامه سيعرف أيضاً

لحظات يندم فيها على قراره، وكلّ ما يريده عندئذٍ سيكون العودة وإيجاد عمل يُكسبه ما يكفي ليعيش.

لكن، في اليوم التالي، سيملأ الفرح الغامر والثقة قلب كلّ عامل أو كلّ مغامر. وسيرى كلاهما ثمر التقدمة وسيُسرّان.

هذا لأنّ كليهما يغنّي الأغنية نفسها: أغنية الابتهاج بالعمل الذي ائتُمنا عليه.

سيموت الشاعر جوعاً بغياب الرعاة. وسيموت الراعي حزناً إذا لم يستطع غناء كلمات الشاعر.

عبر التقدمة، أنتم تسمحون للآخرين بأن يحبّوكم، وتعلّمونهم الحبّ عبر ما تقدّمونه لهم.

والرجل نفسه الذي سأل عن العمل، طرح سؤالاً آخر:

«لِـمَ بعض الأشخاص أوفر حظّاً من سواهم؟».



فأجاب:

لا يأتي النجاح من اعتراف الآخرين بعملكم. هو ثمرة البذرة التي زرعتموها بحبّ.

وعندما يأتي وقت الحصاد، لكم أن تقولوا لأنفسكم: «لقد نجحت».

لقد نجحتم في كسب الاحترام إزاء عملكم، لأنّكم لم تعملوا لمجرّد البقاء، بل كي تظهروا حبّكم للآخرين.

تمكّنتم من إنجاز ما بدأتم، مع أنّكم لم تتوقّعوا وجود كلّ الأشراك على الدرب. وعندما خفّت حماستكم بسبب الصعاب التي واجهتم، لجأتم إلى ضبط النفس. وعندما بدا ضبط النفس على وشك الزوال، لأنّكم كنتم متعبين، كرّستم لحظات راحتكم للتفكير في الخطوات التي لزمكم اتّخاذها في المستقبل.

لم تشلّكم الهزائم التي كانت محتومة في حياة أولئك الذين يُجازفون. لم تنتحبوا على ما فقدتموه عندما علمتم بأنّه لن يجدي.

لم تتوقّفوا عندما عرفتم لحظات من المجد، لأنّكم لم تكونوا قد بلغتم هدفكم بعد.

وعندما أدركتم أنّ عليكم التماس العون، لم تشعروا بالمذلّة. وعندما

بلغ مسامعكم أنَ أحداً يحتاج إلى العون، نقلتم له كلَ ما تعلّمتموه، من دون أن تخشوا إفشاء الأسرار أو التعرّض للاستغلال.

من يقرع، يُفتح له.

من يطلب، يجد.

من يقدّم المؤاساة، يعلم أنّه سيُؤاسى.

* * *

حتّى وإن لم يحصل أيّ من هذه الأمور عندما تتوقّعون، سترون عاجلاً أو آجلاً ثمر ما تشاركتم فيه بسخاء.

يأتي النجاح لأولئك الذين لا يهدرون وقتهم في مقابلة ما يفعلونه بما يفعله الآخرون، هو يدخل بيت من يقول كلّ يوم: «سأبذل جهدي».

ومن يسعون إلى النجاح فقط، نادراً ما يجدونه، هذا لأنّ النجاح ليس بخاتمة بل نتيجة.

الهوس لا يفيد أبداً، فهو يجعلنا في حيرة وارتباك حول أيّ درب نتبع ويُفضي إلى انتزاع لذّة العيش.

لا يكون غنيّاً كلّ من امتلك كومة من الذهب بحجم تلك التلّة التي تقع جنوب مدينتنا. الغنيّ الحقيقيّ هو من كان على اتّصال بطاقة الحبّ في كلّ ثانية من وجوده.

عليكم أن تضعوا نصبكم هدفاً، لكن فيما تمضون، لن يكلّفكم شيئاً أن تتوقّفوا بين الحين والحين وتتمتّعوا بالمنظر من حولكم. وفيما تتقدّمون،

خطوة خطوة، يمكنكم أن تروا أبعد عبر المسافة وتنتهزوا فرصة اكتشاف أمور لم تلاحظوها حتّى من قبل.

في لحظات مماثلة، من المهمّ أن تسألوا أنفسكم: «هل ما تزال قِيمي سليمة؟ أأحاول أنا إرضاء الآخرين وأقوم بما يتوقّعونه منّي، أم أنا مقتنع فعلاً أنّ عملي هو تجلٍ لروحي وحماستي؟ أأريد النجاح بأيّ ثمن، أم أريد أن أكون ناجحاً لأنّني أتمكّن من ملء أيّامي حبّاً؟».

لأنّ هذا هو معنى النجاح الحقيقيّ: إثراء حياتكم، وليس حشرها بصناديق الذهب.

* * *

قد يقول رجل: «سأستعمل مالي لكي أبذر، وأزرع وأحصد وأملأ مخزن الحبوب حبوباً، لئلاّ ينقصني شيء». لكن، عندما يصل الضيف الثقيل، ستذهب كلّ جهود الرجل سدىً.

مَن له أُذنانِ لِلسَّمعِ، فلْيسمَع.

لا تحاولوا أن تختصروا الطريق، بل اجتازوه بطريقة تجعل كلّ عمل يترك الأرض أخصب والمنظر أجمل.

لا تحاولوا أن تكونوا أسياد الوقت. إذا قطفت الثمرة قبل أوانها، ستكون فجّة، ولن يتلذّذ أحدٌ بها. وإذا قرّرتم ، بداعي الخوف أو عدم الثقة، أن تُرجئوا لحظة التقدمة، فستكون الثمرة قد تعفّنت.

لذا، احترموا الوقت الفاصل بين نثر البذار والحصاد.

ثمّ انتظروا معجزة التحوّل.

لا يُسمّى القمح خبزاً إلّا بعد دخوله الفرن.

لا تُسمّى الكلمات قصيدة إلّا بعد قولها.

لا يُسمّى النسيج لباساً إلّا بعد أن تكون يدا المرء قد حاكتاه.

* * *

عندما تحين لحظة إظهار تقدمتكم للآخرين، سيُذهلون ويقول واحدهما للآخر: «هذا رجل ناجح لأنّ الجميع يريد ثمر أعماله».

لن يسأل أحد عن الثمن الذي دفعتم لإنتاج تلك الثمار، لأنّ أيَّ شخص يقوم بعمله بحبّ، يملأ ما أنتجه بقوّة تعجز العين عن رؤيتها. وكما يطير البهلوان بسهولة في الجوّ، من دون جهد ظاهر، فالنجاح، عندما يأتي، يبدو أكثر الأمور طبيعيّة في العالم.

في هذه الأثناء، إذا تجرّأ أحد على السؤال، سيكون الجواب: فكّرتُ في الاستسلام، خِلتُ أنّ الله تخلّى عنّي، غالباً ما كان عليّ تغيير وجهتي، وفي ظروف أُخرى ضيّعت طريقي. على رغم كلّ شيء، وجدت طريقي ثانيةً، وتابعتُ المسير، لأنّي كنتُ على اقتناع بأنْ لا طريق أُخرى أعيش بها حياتي.

تعلّمت أيّ جسور يجب عبورها، وأيّها يجب أن يُحرق.

* * *

أنا شاعرٌ، أنا مزارعٌ، أنا فنّانٌ، أنا جنديّ، أنا أبٌ، أنا تاجرٌ، أنا بائعٌ، أنا معلّمٌ، أنا سياسيٌّ، أنا حكيمٌ، وأنا ببساطة الشخص الذي يرعى المنزل والأولاد.

أدرك أنّ كثيرين هم أشهر منّي، وغالباً ما تكون تلك الشهرة مُستحقّة عن ثراء. في حالات أُخرى، تكون مجرّد تجلٍ للزهو أو الطموح، ولن تصمد في وجه الزمن.

ما النجاح؟

هو القدرة على الخلود إلى النوم كلّ ليلة، وروحكم في سلام.

وسألت «أليرا» التي كانت لا تزال على اعتقادها بأنّ جيشاً من الملائكة، والملائكة الأعلى مرتبة، سينزلون من السموات لحماية المدينة المقدّسة:

«حدّثنا عن المعجزات».



فأجاب:

ما المعجزة؟

نستطيع تعريفها بطرائق مختلفة: أمرٌ يحدث خلاف قوانين الطبيعة؛ شفاعةٌ في لحظات أزمة ضخمة، شفاءات ورؤى، لقاءات مستحيلة؛ تدخّلٌ في اللحظة الأخيرة لدى وصول الضيف الثقيل.

كلّ هذه التعريفات تصحّ، لكنّ المعجزة أبعد من ذلك: هي شيء يملأ قلوبنا فجأة بالحبّ. وعندما يحصل ذلك، نشعر بإجلال عظيم للنعمة التي أغدقها الله علينا.

أعطنا، ربّنا، معجزتنا اليوميّة.

حتّى لو كنّا عاجزين عن ملاحظتها، لأنّ ذهننا مركّز في صنائع ومساعٍ كبيرة. حتّى لو كنّا شديدي الانشغال بحياتنا اليوميّة لمعرفة أنّ دربنا قد تغيّر بسببها.

وعندما نكون حزانى، أعنّا ربّنا على إبقاء عيوننا مفتوحة على الحياة من حولنا: زهرة تتفتّح، والنجوم في السماء، وزقزقة عصفور بعيدة أو صوت طفل قريب.

أعنّا لكي ندرك أنّ ثمّة أموراً مهمّة، إلى درجة تحتّم علينا أن نكتشفها بأنفسنا، من دون مساعدة أحد، ولئلاّ نشعر بالوحدة أو

العجز. لأنك معنا، مستعدٌ للتدخل إذا ما أوشكت أقدامنا أن تنزلق إلى الهاوية.

أعنّا على المضيّ قدماً رغم الخوف، وتقبّل ما لا يُفسّر رغم حاجتنا إلى التفسير ومعرفة كلّ شيء.

أعنّا لكي ندرك أنّ قوّة الحبّ تكمن في تناقضاته، وأنّ الحبّ يدوم بتغيّره لا بثباته أو بعدم مواجهة التحدّيات أبداً.

* * *

أعنّا على الفهم أيضاً أنّنا، في كلّ مرّة نرى فيها المتواضع قد كبر شأنه والمتكبّر تواضع، نشهد على معجزة.

أعنّا لكي نعرف أنّنا متى تعبت أقدامنا، نستطيع الاستمرار بفضل القوّة في قلوبنا، ومتى تعبت قلوبنا، نستطيع الاستمرار بفضل قوّة إيماننا.

أعنّا لكي نرى أنّ كلّ حبّة رمل في الصحراء إنما هي برهان على معجزة الاختلاف، لعلّ ذلك يشجّعنا على تقبّل ذواتنا كما نحن. فكما لا توجد حبّتا رمل متشابهتان، كذلك لا يوجد شخصان يفكّران ويتصرّفان بالطريقة نفسها.

أعنّا على أن نكون متواضعين عند الأخذ، وفرحين عند العطاء.

أعنّا لكي ندرك أنّ الحكمة لا تكمن في الإجابات، بل في غموض الأسئلة التي تُثري حياتنا.

أعنّا لئلاّ نقع أسرى الأمور التي نعتقد أننّا نعرفها، لأنّنا نعرف القليل عن القدر، ولعلّ ذلك يُفضي بنا إلى التصرّف بشكل معصوم،بالفضائل الأساسيّة الأربع: الجرأة والأناقة والحبّ والصداقة.

أعطنا، ربّنا، معجزتنا اليوميّة.

فكما لتسلّق قمّة الجبل دروب كثيرة، كذلك لتحقيق هدفنا. أعنّا على الإدراك أنّ الدرب الوحيد الأجدر بأن نتّبعه هو الدرب الذي فيه نعثر على الحبّ.

أعنّا على إيقاظ الحبّ الذي يغفو في داخلنا قبل أن نوقظ الحبّ في الآخرين. عندئذٍ فقط سنتمكّن من اجتذاب العاطفة والحماسة والاحترام.

أعنّا على تمييز المعارك التي تخصّنا من المعارك التي نُدفع إليها على رغم إرادتنا، والمعارك التي لا يسعنا اجتنابها لأنّ القَدَرَ وضعها في طريقنا.

لعلّ أعيننا تفتح لكي نرى أنْ ما من يومين متشابهين. فكلّ يوم يحمل معه معجزة مختلفة، تسمح لنا بأن نواصل تنفّسنا وأحلامنا وسيرنا في الشمس.

ولعلّ آذاننا تفتح أيضاً لتسمع الكلمات المناسبة التي تخرج فجأة من فم أحد رفقائنا، حتّى لو كنّا لم نطلب نصيحته ولا يدري ما يجري في روحنا في هذه اللحظة.

لعلّنا، عندما نفتح أفواهنا لا نتكلّم لغة البشر فحسب، بل لغة الملائكة أيضاً، ونقول: «المعجزات لا تحصل خلافاً لقوانين الطبيعة؛ نحن نعتقد هذا لأنّنا لا نعرف قوانين الطبيعة».

ولعلّنا، عندما نحقّق ذلك، نحني رؤوسنا احتراماً، قائلين: «كنتُ أعمى، والآن أُبصر. كُنت أخرس، والآن أتكلّم. كنتُ أصمّ، والآن أسمع، لأنّ الله حقّق معجزته بي، وكلّ ما ظننتُ أنّني خسرته، قد استُعيد».

المعجزات تمزّق الحُجب وتغيّر كلّ شيء، لكنّها لا تدعنا نرى ما يستتر خلفها.

هي تسمح لنا أن نفرّ سالمين من وادي ظلال الموت، لكنّها لا تخبرنا أيّ طريق أدّت بنا إلى جبال الفرح والنور.

هي تفتح أبواباً كانت موصدة بأقفال استحال كسرها، لكنّها لم تستعمل مفاتيح.

هي تحيط الشموس بكواكب لئلّا تشعر بالوحدة في الكون، وتُبقي الكواكب على مسافة غير قريبة لئلّا تلتهمها الشموس.

هي تحوّل القمح إلى خبز بالعمل، والعنب إلى نبيذ بالصبر، والموت إلى حياة بانبعاث الأحلام.

لهذا، أعطنا، ربّنا، اليوم معجزتنا اليوميّة.

واغفر لنا إن كنّا عاجزين أحياناً عن الاعتراف بها.

وسأل رجل كان يُصغي إلى أناشيد الحرب الآتية من خلف أسوار المدينة، وقد خشي على عائلته:

«حدّثنا عن القلق».

فأجاب:

القلق أمر طبيعيّ.

ومع أنّنا نعجز عن التحكّم بوقت الله، فإنّ القلق جزء من الظروف البشريّة في رغبة في الحصول على ما ننتظره بأسرع ما يمكننا.

أو لدرء كلّ ما يسبّب مخاوفنا.

وهذا حاصل بدءاً من الطفولة، حتى نبلغ سنّاً نُمسي فيها غير آبهين للحياة. لأنّنا ما دمنا متّصلين باللحظة الحاضرة، فسنظلّ دوماً ننتظر بقلقٍ شخصاً أو شيئاً.

كيف يمكنكم أن تقولوا لقلبٍ شغوف، أن يهدأ ويتأمّل معجزات الخلق في سكون، بلا توتّر، بلا خوف، وفي حيرة من أسئلة لا إجابات عنها؟

القلق جزءٌ من الحبّ، ولا يجوز لومه لهذا السبب.

كيف يمكنكم أن تقولوا لأحدٍ ألّا يقلق بعدما استثمر ماله وحياته في حلم، ولم يقطف ثماره بعد؟ لا يمكن للمزارع أن يستعجل توالي الفصول كي يقطف ثماره، لكنّه ينتظر بفارغ الصبر حلول الخريف ووقت الحصاد.

كيف يمكنكم أن تطلبوا إلى محاربٍ ألّا يقلق قبل المعركة؟ فقد تدرّب إلى حدّ الإعياء لحلول تلك اللحظة، وأعطى أفضل ما لديه. ومع أنّه يؤمن بأنّه مستعدّ، يخشى أن يتبيّن أنّ جهوده كلّها قد تذهب سدىً.

وُلد القلق بولادة البشريّة. وبما أنّنا نعجز عن التمكّن منه، علينا أن نتعلّم كيف نعايشه - تماماً كما تعلّمنا معايشة العواصف.

ومن يعجزون عن تعلّم ذلك، ستكون حياتهم كابوساً.

والأمر الذي عليهم تقديم الامتنان له - بكلّ ما في اليوم من ساعات - يبات لعنة. هم يريدون مرور الوقت أسرع، غير مدركين أنّ ذلك سيُعجّل لقاءهم بالضيف الثقيل.

والأسوأ من ذلك، أنّهم، وفي محاولة لإبعاد القلق، يقومون بأمور تزيد منه.

تشرع الوالدة المنتظرة عودة ابنها في تخيّل الأسوأ.

ويفكّر العاشق: «حبيبي لي وأنا له. بحثتُ عنه طول الدنيا وعرضها، لكنّي لم أعثر عليه. وفي كلّ زاوية مررت فيها، وفي سؤالي كلّ شخص، وعجزه عن الإجابة، أسمح لقلق الحبّ العادي أن يتحوّل يأساً».

يحاول العامل المنتظر ثمار عمله، أن يشغل نفسه بمهمّات أُخرى. وتُضيف كلّ مهمّة قَدْراً من القلق إلى سلّته. لن يطول الوقت قبل أن ينمو كلّ قلق فرديّ ليتحوّل قلقاً أوسع، ويعجز العامل بالتالي عن رؤية السماء أو النجوم أو أولاده يلعبون.

وتكفّ الوالدة والعاشق والعامل جميعاً عن عيش حياتهم، ويتوقّعون، ببساطة، الأسوأ؛ يصغون إلى الشائعات ويتذمّرون من طول النهار وكأنّه لا ينتهي. يُصبحون عدائيّين تجاه أصدقائهم وعائلتهم ومُستخدَميهم.

يأكلون بشكل سيّئ، فإمّا يُفرطون وإما يمتنعون. وفي الليل، يُلقون برؤوسهم على الوسائد، ولكن لا يطمئنّ جنبهم إلى مضجع.

ذلك يكون حين يحوك القلق وشاحاً لا تراه سوى مقلتي الروح.

ومقلتا الروح مغشّيتان من التعب.

وفي تلك اللحظة، يزحف إلى خلدهم ألدّ أعداء البشريّة: الهوس.

يصل الهوس ويقول:

«مصيرك بين يديّ الآن. سأجعلك تتطلّع إلى أمور لا وجود لها. فرحك بالعيش بين يديّ الآن. من الآن فصاعداً، لن يعرف قلبك سلاماً، لأنّني سأنتزع الحماسة منه وأحتلّ مكانها.

سأدع الخوف يغيّم فوق عالمك، وستكون مرتاعاً كلّ الوقت من دون أن تعلم السبب. لا داعي لأن تعلم، عليك أن تبقى مرتاعاً، لتوقد خوفك وتغذّيه.

وعملك الذي قام على التقدمة، بَطُلَ، لأنّي استملكته. سيقول لك الآخرون إنّك تشكّل قدوة ممتازة، لأنّك تُجهد نفسك، وسوف تبتسم وتشكرهم على ثنائهم.

لكن في الصميم، سأقول لك إنّ عملك أضحى ملكي الآن، وسأستعمله لإقصائك عن كلّ شيء وكلّ شخص، عن أصدقائك، عن ابنك، عن ذاتك.

جُدّ أكثر، وعندئذٍ لا حاجة بك إلى التفكير. جُدّ أكثر ممّا يلزمك، لكي تكفّ عن العيش بوجه عامّ.

حبّك، الذي كان يوماً تجلّياً للطاقة الإلهية، أمسى ملكي الآن. ومن تحبّك ستعجز عن مفارقتك ولو للحظة، لأنّني سأكون داخل قلبك أقول: حذار. قد ترحل بلا عودة.

إبنك، الذي مشى دربه في هذا العالم، سيصبح ملكي الآن أيضاً. سأجعلك تطوّقه بهموم تافهة تطغى على نكهة المغامرة والمجازفة لديه، فيتألّم كلّما تصرّف بما لا يرضيك، وستُشعره بالذنب لأنّه أخفق في بلوغ توقّعاتك».

لذا، حتّى لو كان القلق جزءاً من حياتكم، لا تدعوه يسيطر عليكم. إن دنا منكم، فقولوا: «لستُ قلقاً على المستقبل، لأنّ الله هناك، بانتظاري».

* * *

إذا حاول إقناعكم بأنّ العمل المكثّف هو مرادف لحياةٍ مُنتجة، فقولوا: «عليّ النظر إلى النجوم كي تُلهمني وأؤدّي عملي جيّداً».

إذا هدّدكم بشبح الجوع، فقولوا: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله».

إذا قال لكم إنّ حبيبتكم قد لا تعود، فقولوا: «حبيبتي لي وأنا لها، هي ترعى قطعانها على ضفّة النهر. وأستطيع سماع غنائها حتّى من بعيد.

ندما ترجع إلى المنزل، ستكون متعبة وسعيدة، وسأُعدّ لها بعض الطعام
هر على نومها».

إذا قال لكم إنّ ابنكم لا يكنّ احتراماً للحبّ الذي أغدقتموه عليه،
فأجيبوا: «الحذر المفرط يدمّر الروح والقلب، لأنّ العيش فعل شجاعة، وفعل
الشجاعة هو دوماً فعل حبّ».

هكذا، ستُبقون القلق بمنأىً عنكم.

هو لن يزول، لكنّ حكمة الحياة العظيمة تكمن في إدراك قدرتنا على
تولّي الأمور التي تحاول استعب...



ويسأل شابٌ:

«قل لنا ما يخبّئه المستقبل».



فأجاب:

كلّنا نعلم ما ينتظرنا في المستقبل: إنّه الضيف الثقيل الذي قد يصل في أيّ لحظة، بلا سابق إنذار، ويقول: «تعال معي».

وعلى رغم شدّة رغبتنا في عدم مرافقته، لن يكون أمامنا خِيار. في تلك اللحظة، سيكون أعظم فرحنا أو ربّما أعظم حزننا، أن ننظر إلى الماضي ونُجيب عن السؤال: «هل أعطيتُ ما يكفي من الحبّ؟».

علينا أن نحبّ. ولستُ أحدّثكم عن الحبّ تجاه شخصٍ آخر فحسب. الحبّ يعني أن نكون منفتحين على المعجزات، على الانتصارات والهزائم، على كلّ شيء يجري في كلّ يوم أُعطيَ لنا لنجوب وجه الأرض.

تحكم روحَنا أربع قوىً لامرئيّة: الحبّ والموت والقوّة والزمان.

علينا أن نحبّ لأنّ الله يحبّنا.

علينا أن نعي وصول الضيف الثقيل إذا ما أردنا أن نفهم الحياة فهماً كليّاً.

علينا أن نكافح كي ننمو، لكن من دون أن نصبح أسرى أيّ قوّة قد نكتسبها من ذلك، لأنّنا نعلم أنّ مثل هذه القوّة غير مجدية.

أخيراً، علينا أن نتقبّل أنّ روحنا، على رغم خلودها، تكون في تلك اللحظة عالقة في شباك الزمن، بكلّ احتمالاتها وقيودها.

لم يأت حُلمنا، رغبة روحنا، من عدم. ثمة من وضعه هناك. وحدد الحبّ الطاهر الذي يبغي لنا السعادة فحسب. فعل ذلك، لأنّه زوّدنا أيضا بالأدوات التي تمكّننا من إدراك أحلامنا ورغباتنا.

عندما تواجهون الصعاب، تذكّروا: ربّما خسرتم معارك كبرى، لكنّكم نجوتم ولا تزالون هنا.

هذا هو النصر. أظهروا سعادتكم واحتفلوا بقدرتكم على المضيّ.

انشروا حبّكم بسخاء في الحقول والمراعي، في شوارع المدينة الكبيرة، وعبر كثبان الصحراء.

أظهروا أنّكم تهتمّون بأمور الفقراء، فهذه فرصتكم لكي تُبدوا فضيلة الزكاة.

إهتمّوا أيضاً بأمور الأغنياء، الذين يحجبون ثقتهم ويُبقون على مخازن الحبوب طافحة بالحبوب، وصناديق المال ملأى بالمال، لكنّهم على رغم ذلك كلّه، يعجزون عن إبعاد الوحدة عنهم.

لا تفوّتوا أبداً أيّ فرصة لإظهار حبّكم، بخاصّة للمقرّبين منكم، لأنّنا نكون على أشدّ الحذر معهم، خشية أن نتأذّى.

أحبّوا، لأنّكم ستكونون أوّل المستفيدين. سيكافئكم العالم من حولكم، حتّى لو كنتم أوّلاً، ستقولون لأنفسكم: «هم لا يفهمون حبّي».

لا يحتاج الحبّ إلى أن نفهمه. يحتاج إلى أن نظهره فقط.

لذا، ما يخبّئه المستقبل لكم وقف بالكامل على قدرتكم على الحبّ.

ولهذا، عليكم أن تضعوا ثقتكم المطلقة والتامّة في ما تفعلون. لا تدعوا الآخرين يقولون: «هذا الطريق أفضل» أو «هذا الطريق أسهل».

القدرة على اتّخاذ القرار هي الهبة العظمى التي منّ بها الله علينا.

يُقال لنا جميعاً، بدءاً من طفولتنا، أنّ ما نريده هو فعل المستحيل.

فيما نُراكم السنين، نُراكم أيضاً رمال الأحكام المسبقة والمخاوف والذنب.

أعتقوا أنفسكم منها. ليس غداً، ولا الليلة، بل الآن.

وكما قلت، يعتقد كثيرون من بيننا أنّنا سنؤذي من نحبّ، إذا هجرنا كلّ شيء وخلّفناه وراءنا باسم أحلامنا.

لكنّ أولئك الذين يريدون الأفضل لنا، يريدون سعادتنا، حتّى وإن عجزوا عن فهم ما نفعله، وحتّى وإن كانوا يحاولون، بدايةً، منعنا من المضيّ، عبر التهديد والوعيد والدموع.

لا بُدّ لمغامرة الأيّام الآتية أن تكون مليئة بالرومنسيّة، لأنّ العالم يحتاج إلى ذلك، لذا، عندما تركبون جوادكم، شعروا بالريح تلامس وجهكم واستسيغوا طعم الحرّيّة.

لكن لا تنسوا أنّ الرحلة أمامكم طويلة. إذا استسلمتم كلّيّاً لرومنسيّتها، فقد تسقطون. إذا لم تتوقّفوا بين الحين والحين كي ترتاحوا وتريحوا جوادكم، فقد يموت جوادكم عطشاً أو إعياءً.

أصغوا إلى الريح، لكن لا تهملوا جوادكم.

وفي اللحظة عينها التي يبدو فيها كلّ شيء بخير، وحلمكم على وشك أن يصبح في متناولكم، عليكم التيقّظ أكثر من أيّ وقت فات.

فعندما يوشك حلمكم أن يصبح في متناولكم، سيجتاحكم ذنب عظيم.

سترون أنّكم على وشك أن تصلوا إلى مكان قلّة وطئوه، وستخالون أنّكم لا تستحقّون ما تقدّمه لكم الحياة.

ستنسون المعوّقات التي تخطّيتموها، وكلّ ما عانيتموه وما ضحّيتم به. وبسبب ذاك الشعور بالذنب، قد تدمّرون بلا وعي كلّ ما استغرقكم دهر لبنائه.

وهذا أخطر المعوّقات، لأنّ الرجوع عن الظفر محاط بهالة ما من القُدسيّة.

لكن، إذا فهم الإنسان أنّه جدير بما كافح طويلاً لأجله، سيُدرك أنّه لم يبلغه وحده، وعليه أن يحترم يد القدير التي قادته.

وحده من يقدر على إجلال كلّ خطوة يخطوها، قادر على استيعاب قَدْرِه.

وكان ثمّة رجل متمرّس بالكتابة، ويحاول بجنون تدوين كلّ كلمة قالها القبطيّ، فتوقّف ليرتاح، وأدرك أنّه في حالة من الانخطاف. بدت الساحة، والوجوه التعبة، ورجال الدين الذين كانوا يُصغون بصمت، بدوا جميعهم جزءاً من حلم.

وكي يُظهر لنفسه أنّ ما يختبره كان حقيقيّاً، قال: «حدّثنا عن الوفاء».



فأجاب:

يمكننا مقابلة الوفاء بمتجرٍ يبيع زهريّات خزفيّة فاخرة، متجر أعطانا الحبّ مفتاحه.

كلٌّ من هذه الزهريّات جميلة، لأنّها لا تتشابه، كعدم تشابه الأشخاص وقطرات المطر والصخور المستلقية عند أسفل الجبال.

أحياناً، بفعل العمر أو عيب غير متوقّع، يهوي رفّ ويقع. ويقول صاحب المتجر لنفسه: «استثمرتُ سنين من وقتي وحبّي، لهذه الزهريّات، لكنّها خانتني وانكسرت».

يبيع الرجل متجره ويرحل. يُصبح شخصاً منعزلاً، نكداً، مقتنعاً بأنّه لن يثق بأحدٍ بعد الآن.

الحقّ أنّ بعض الزهريّات تتحطّم، ووعدٌ بالوفاء يتحطّم. في هذه الحال، من الأفضل كنسُ القطع ورميها، فما انكسر لن يعود كما كان أبداً.

ولكن، أحياناً، يهوي رفّ ويقع لأسبابٍ أبعد من نيّات الإنسان: قد تكون هزّةً أرضيّة، أو غزواً من عدوّ، أو رعونةَ شخصٍ يدخل المتجر من دون التنبّه لخطواته.

يتبادل الرجال والنساء اللوم على وقوع الكارثة. يقولون: «كان على

أحدٍ التنبّؤ بما كان سيحدث»، أو: «لو كنت أنا المسؤول، لأمكن التفادي من هذه المشكلات».

هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. كلّنا أسرى رمال الوقت، ولا يسعنا التحكّم بها.

يمرّ الوقت، والرفّ الذي سقط يُصلح.

وتوضع عليه زهريّات تتنازع على مكانٍ لها في العالم. وصاحب المتجر الجديد الذي يعي أنّ كلّ شيء فانٍ، يبتسم ويقول: «تلك المأساة وفّرت لي فرصة. وسأحاول أن أستفيد منها إلى أقصاها. سأكتشف أعمالاً فنيّة لم أعرف بوجودها من قبل».

روعة متجر الزهريّات الخزفيّة تنبع من فرادة كلّ زهريّة، ولكن، عند رصف إحداها إلى جانب الأخرى، ترشح تناغماً وتعكس جهد الخزّاف وفنّ الرسّام.

يمكن لكلّ عمل فنّيّ أن يقول: «أريد أن أكون قبلة الأنظار، وسوف أخرج من هنا». لكن، عندما يحاول ذلك، سيتحوّل كومة من الأجزاء المحطّمة عديمة القيمة.

وكما هي حال الزهريّات، كذلك حال الرجال والنساء.

وهي حال القبائل والسفن والأشجار والنجوم.

ما إن نفهم ذلك، حتى نتمكّن من مجالسة جارنا في نهاية النهار والإصغاء إلى ما يقوله باحترام، وقول ما يودّ سماعه. ولن يحاول أحدٌ من بيننا أن يفرض فكرَهُ على الآخر.

خلف الجبال التي تفصل القبائل، خلف المسافة التي تفصل الأجساد. يقبع مجتمع الأرواح. نحن جزءٌ منه، فما من شوارع تغصّ بكلمات غير هادفة، هناك مجرّد جادّات واسعة تصلنا بالقاصي، ويجب أحيانا تأهيلها لإصلاح الضرر الذي ألحقه بها الزمن.

وهكذا، لن يُنظر إلى العاشق العائد بعينٍ من الريبة، لأنّ الوفاء يرافق خُطاه.

والرجل الذي نُظر إليه بالأمس عدوّاً بسبب الحرب القائمة، سيُرى الآن صديقاً من جديد، لأنّ الحرب انتهت والحياة تستمرّ.

والابن الذي غادر سيعود في نهاية المطاف، وسيعود مكتنزاً بالتجارب التي اختبرها على طول الدرب. سيستقبله والده بغبطة ويقول لخَدَمِهِ: «هاتوا أفخرَ ثوبٍ وألبسوه، وضَعوا خاتماً في إصبعِهِ، وحذاءً في رجليهِ، لأنّ ابنيَ هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجِد».



قال رجلٌ ترك الزمن علامة على جبينه. ونُدباً على جسده روت قصّة المعارك التي خاضها:

«حدّثنا عن سلاح نتسلّح به، بعد فقدِ كلّ شيء».

فأجاب:

حيث يوجد الوفاء، لا نفع للسّلاح.

كلّ الأسلحة أدواتٌ من صنع الشرّير. لأنّها ليست أدوات الرجل الحكيم.

الوفاء متجذّر في الاحترام، والاحترام ثمرة الحبّ، والحبّ يُقصي شياطين الخيال، التي تشكّ في كلّ شيء وكلّ شخص، ويرفع الغشاوة عن بصرنا.

عندما يودّ حكيمٌ أن يُضعف أحداً. يجعله أوّلاً يعتقد بأنّه قويّ. عندئذٍ، سيقع ذاك الرجل في شرك تحدّي شخص أقوى منه، فيُدمّر.

عندما يودُّ حكيمٌ أن يَبخس أحداً شأنه، يجعله أوّلاً يتسلّق أعلى جبال العالم ويوهمه بأنّه شديد القدرة. عندئذٍ، سيعتقد ذاك الرجل أنّ باستطاعته التسلّق أعلى، فيهوي.

عندما يشتهي حكيمٌ ما يملكه رجلٌ آخر، يُمطره بالهدايا. عندئذ، سيكون على ذاك الرجل رعاية كثير من الأشياء العديمة النفع، وسيخسر كلّ شيء آخر، لانهماكه بالحفاظ على ما يعتقد أنّه يمتلكه.

عندما يعجز حكيمٌ عن اكتشاف ما يخطّط خصمه له. يدّعي هجوماً. جميعنا على أهبة الدفاع عن أنفسنا دوماً. لأنّنا نعيش جميعاً في ظلّ الخوف ورهاب ألّا نروق للآخرين.

وإمهما كان خصمه متّقد الذهن، يشعر بعدم الأمان، ويردّ الفعل على ذاك الاستفزاز بعنف مفرط. بذلك، يكشف عمّا لديه من سلاح، وعندئذٍ يكتشف الحكيم نقاط القوّة والضعف في خصمه.

فيعمد الحكيم، لقدرته الآن على توقّع ردّ الفعل، إلى الهجوم أو إلى الانسحاب.

* * *

هكذا يَهزِم من يبدو عليهم الخضوع والضعف أولئك الأقوياء والمقتدرين.

وهكذا، غالباً ما يَهزِم الحكماء المحاربين، غير أنّ المحاربين يهزمونهم أيضاً. للتفادي من ذلك، من الأفضل اللجوء إلى السلام والسكينة الموجودين في الاختلافات بين البشر.

على المصاب أن يتساءل: «هل من الجدير أن أحمّل قلبي حقداً وأجرّ حمله معي؟».

بهذه الطريقة، هو يستعمل إحدى صفات الحبّ، وهي الغفران بالتحديد. يُساعده ذلك على الترفّع عن كلّ الشتائم المسموعة في خضمّ المعركة، والتي سرعان ما سيمحوها الزمن، كالريح التي تمحو آثار الأقدام في رمال الصحراء.

عندما تغفر لمن أهانك، يشعر بوضاعة خطئه ويصبح وفيّاً.

لذا، دعونا نعِ القوى التي تحرّكنا.

ليس البطل الحقيقيَ من وُلد ليقوم بصنائع عظيمة بل من تمكّن من بناء درع من وفاء على صدره، عبر أمور صغيرة كثيرة.

ليس العاشق الحقيقيّ من يقول: «عليك أن تبقى إلى جانبي ولعلّني أرعاك، لأنّنا نتبادل الوفاء»، بل هو من يُدرك أنّ الوفاء يرافق الحرّيّة، وبلا خشية الخيانة، يتقبّل حلم معشوقه ويحترمه، مؤمناً بقدرة الحبّ الأعظم.

ليس الصديق الحقيقيّ من يقول: «لقد جرحتني اليوم، وأنا تعيس».

هو يقول: «لقد جرحتني اليوم لأسباب أجهلها، ويُحتمل أنّك أنت أيضاً تجهلها؛ لكن في الغد، أعرف أنّني سأتمكّن من الاعتماد عليك، ولذا لن أكون تعيساً».

ويُجيب الصديق: «أنتَ صديقٌ وفيّ، لأنّك عبّرتَ عمّا شعرتَ به. فبئس الصديق الذي يعتقد أنّ الوفاء هو تقبّل كلّ خطأ نرتكبه».

ليست الحربة التي قد تجرح جسداً، أو مدفع الحصار الذي قد يهدم سوراً، أشدّ الأسلحة تدميراً. الكلمة هي أشدّها فتكاً، لأنّها قد تدمّر حياة من دون أن تسفك ولو قطرة دم، وتخلّف جرحاً لا يندمل.

دعونا إذاً نكنْ سادة ألسنتنا، لا عبيد كلماتنا. حتّى لو استعملت الكلمات ضدّنا، ولنحجم عن معركة سنخرج منها خاسرين. في اللحظة التي نضع فيها أنفسنا على مستوى خصم خسيس، سيكون نزاعنا في الظلام، وسيكون النصر من نصيب إله الظلام.

* * *

الوفاء لؤلؤة في حفنة من رمل. ووحدهم أولئك الذين يفقهون معناها، يستطيعون رؤيتها.

وهكذا، قد يمرّ زارع بذار الانشقاق آلاف المرّات على البقعة نفسها، ولن يرى الجوهرة الصغيرة التي تصون اتّحاد من يحتاجون إلى البقاء متّحدين.

لا يمكن للوفاء أن يُفرض بالقوّة أو الخوف أو عدم الأمان أو التهويل.

هو خِيارٌ وحدها الأرواح القويّة قادرة على اتّخاذه.

ولأنّه خِيارٌ، لن يُسامح الخيانة أبداً، لكنّه سيكون حليماً أمام الأخطاء.

ولأنّه خِيارٌ، سيصمد في وجه الزمن والخلافات العابرة.

وسأل أحد الشبّان في الحشد، بعد أن رأى أنّ الشمس إلى مغيب، وسرعان ما سينتهي هذا اللقاء، لقاء القبطيّ:

«وماذا عن الأعداء؟».



فأجاب:

الحكيم الحقيقيّ لا يندب الأحياء أو الأموات. لذا، تقبّلوا المعركة التي تنتظركم في الغد. لأنّنا من الروح الأبديّة مصنوعون، وهي غالباً ما تضعنا في مواقف علينا مواجهتها.

في لحظات مماثلة، دعوا جانباً كل الأسئلة التي لا طائل لها. لأنّها تُبطئ أفعال المحارب المنعكسة.

المحارب على أرض المعركة يُحقّق قدره. وعليه أن يُسلّم أمره لها. الويل لأولئك الذين يخالون أنّ بإمكانهم القتل أو الموت! الطاقة الإلهيّة أكبر من أن تُدمّر. هي تُبدّل شكلها فحسب. قال حكماء العصور القديمة:

«تقبّلوا هذا جزءاً من خطّة عليا ما، وامضوا. المعارك الدنيويّة لا تُحدّد هويّة الإنسان. فكما تغيّر الريح مسارها، كذلك يفعل الحظّ والنصر. خاسر اليوم سيكون رابح الغد. لكن لحصول ذلك، لا بُدّ من اعتناق القتال بشرف.

وكما يرتدي إنسان ثيابا جديدة، ويرمي القديم منها، كذلك الروح تتقبّل أجساداً ماديّة جديدة، هاجرة ما عتق منها وما لم يعد ذا نفع. ومتى عرفتم هذا، لا يجدر بكم المعاناة بسبب الجسد».

هذا هو القتال الذي سنواجهه الليلة أو صباح الغد. وسيسجّل التاريخ ما يحصل.

لكن، بما أنّنا نوشك على إنهاء لقائنا، لا يجوز أن نهدر وقتنا على ذلك.

لذا، أتمنّى أن أتحدّث عن أعداء آخرين: أولئك الذين إلى جانبنا.

سيكون علينا جميعاً أن نواجه أخصاماً كثيرين في حياتنا، لكن أصعبهم هزيمة هم أولئك الذين نخشاهم.

سنلتقي دوماً منافسين في كلّ ما نفعله، لكنّ أخطرهم هم أولئك الذين نعتقدهم أصدقاءنا.

* * *

سنعاني عندما تُهاجَم كرامتنا أو تُجرَح، لكنّ الألم الأعظم سيكون بسبب أولئك الذين خلناهم قدوة ننحو منحاها.

لا يسعُ أيّاً منّا أن يجتنب لقاء أولئك الذين سيخونوننا ويُشهّرون بنا، لكن بوسعنا أن نُبعد الشرّ قبل أن يظهر على حقيقته، لأنّ أيّ تصرّف وديّ بإفراط، قد يكون سكّيناً مخبّأ خلف الظهر على وشك أن يُستعمل.

لا يجهد الأوفياء من الرجال والنساء في إظهار ما هم عليه، لأنّ أرواحاً وفيّة أُخرى تتفهّم خصالهم وعيوبهم.

حذارِ من كلّ مَن يحاول إرضاءكم كلّ الوقت.

وحذارِ من الألم الذي يمكنكم أن تُلحقوه بأنفسكم، بالسماح لقلب خسيس وجبان أن يكون جزءاً من عالمكم. ما إن يتمّ فعل الشرّ حتّى يُمسي إلقاء الملامة على أيٍ يكن بلا نفع: فصاحب المنزل فتح الباب بنفسه.

كلّما كان المشهَر هشّاً، كانت أفعاله أخطر. لا تجعلوا من أنفسكم هشّة أمام تلك الأرواح الهزيلة التي لا تحتمل لقاء روحٍ قويّة.

إذا واجهكم أحدٌ بالفكر أو المثاليّات، فتقدّموا واقبلوا القتال. لأنّ النزاع حاضر في كلّ لحظة من حياتنا، ويحتاج أحياناً إلى الظهور في وضح النهار.

لكن، لا تقاتلوا كي تُظهروا أنّكم على صواب، أو لفرض فِكَرِكم أو مثاليّاتكم على الآخرين. إقبلوا القتال كي تحافظوا فقط على نقاوة روحكم وشفّافيّة إرادتكم. وعندما ينتهي القتال، سيخرج كلا الطرفين منه منتصرين، لأنّهما امتحنا قيودهما وقدراتهما، حتّى لو قال أحدهما في البداية: «لقد ربحت»، فيحزن الآخر، مفكّراً: «لقد خسرت».

بما أنّ الواحد يحترم شجاعة الآخر وعزمه، سيحين الوقت الذي يمشيان فيه جنباً إلى جنب، حتّى لو كان عليهما انتظار ألف سنة لحدوث ذلك.

في هذه الأثناء، إذا رغب أحدٌ في استفزازكم، فانفضوا الغبار عن أقدامكم وامضوا. قاتلوا من هو جدير بالقتال فقط، وليس من يستخدم الحِيَل لإطالة حرب انتهت، كما يحدث في كلّ الحروب.

لا تتأتّى وحشيّة مماثلة من المحاربين الذين يلتقون على أرض المعركة عارفين بما يقومون به، بل من أولئك الذين يتلاعبون بالنصر والهزيمة لمصلحة غاياتهم.

ليس العدوّ من يقف أمامكم، وسيفٌ في يده. هو من يقف إلى جانبكم، وخنجرٌ خلف ظهره.

أهمّ الحروب هي تلك التي لا تُخاض بروحِ مُتشامخة وبروح مصالحة لمصيرها. هي الحرب القائمة الآن فيما نحن نتحادث، وأرض معركتها هي الروح القدس، حيث الخير والشرّ. والشجاعة والجبن، والحبّ والخوف، تقف وجها لوجه.

لا تردّوا أبداً الحقد بالحقد، بل بالعدل.

لا ينقسم العالم أعداءً وأصدقاء، بل ضعفاء وأقوياء.

الأقوياء شهامٌ عند النصر.

الضعفاء يحالفون الفاشلين، غير عارفين أنّ الهزيمة مجرّد شأنٍ انتقاليّ. ويختارون من بين الفاشلين أكثرهم هشاشة.

إذا حصل ذلك لكم، فاسألوا أنفسكم هل تريدون تأدية دور الضحيّة؟

إذا أجبتم «نعم»، فلن تتحرّروا من ذاك الخِيار ما حييتم. وستكونون فريسة سهلة كلّما واجهتم قراراً يستوجب شجاعة. قد تتكلّمون كالظافرين، لكنّ نظرة الهزيمة في عيونكم لن تفارقكم، وسيلاحظها الكلّ.

إذا أجبتم «لا»، فلا تُذعنوا. الأفضل أن تثوروا فيما تسهل مداواة جروحكم، حتّى لو استلزم ذلك وقتاً وصبراً.

ستقضون بضع ليالٍ ساهدين وأنتم تفكّرون: «لا أستحقّ هذا».

أو تفكّرون كم إنّ العالم مجحف، لأنّه لم يرحّب بكم كما توقّعتم، أو تشعرون بالخزي إزاء ما تعرّضتم له من مذلّة أمام زملائكم أو حبيبكم أو أهلكم.

لكن، إن صمدتم، فسيُجاوزكم قطيع الضباع ويرحل بحثاً عن شخص آخر يؤدّي دور الضحيّة. عليه أن يتعلّم العبر نفسها التي تعلّمتموها، لأنّ أحداً لن يتمكّن من مساعدتهم.

* * *

لذا، أعداؤكم ليسوا أخصامكم الذين وُضعوا أمامكم لامتحان شجاعتكم. هم الجبناء الذين وُضعوا أمامكم لامتحان ضعفكم.

أهمّ الحروب هي تلك التي لا تُخاض بروحٍ مُتشامخة وبروح مصالحة لصيرها. فهي الحرب القائمة الآن فيما نحن نتحادث. وأرض معركتها هي الروح القدس، حيث الخير والشرّ، والشجاعة والجبن، والحبّ والخوف، تقف وجهاً لوجه.

لا تردّوا أبداً الحقد بالحقد، بل بالعدل.

لا ينقسم العالم أعداءً وأصدقاء، بل ضعفاء وأقوياء.

الأقوياء شهامٌ عند النصر.

الضعفاء يحالفون الفاشلين، غير عارفين أنّ الهزيمة مجرّد شأنٍ انتقاليّ. ويختارون من بين الفاشلين أكثرهم هشاشة.

إذا حصل ذلك لكم، فاسألوا أنفسكم هل تريدون تأدية دور الضحيّة؟

إذا أجبتم «نعم»، فلن تتحرّروا من ذاك الخِيار ما حييتم. وستكونون فريسة سهلة كلّما واجهتم قراراً يستوجب شجاعة. قد تتكلّمون كالظافرين، لكنّ نظرة الهزيمة في عيونكم لن تفارقكم، وسيلاحظها الكلّ.

إذا أجبتم «لا»، فلا تُذعنوا. الأفضل أن تثوروا فيما تسهل مداواة جروحكم، حتّى لو استلزم ذلك وقتاً وصبراً.

ستقضون بضع ليالٍ ساهدين وأنتم تفكّرون: «لا أستحقّ هذا».

أو تفكّرون كم إنّ العالم مجحف، لأنّه لم يرحّب بكم كما توقّعتم.

أو تشعرون بالخزي إزاء ما تعرّضتم له من مذلّة أمام زملائكم أو حبيبكم أو أهلكم.

لكن، إن صمدتم، فسيُجاوزكم قطيع الضباع ويرحل بحثاً عن شخص آخر يؤدّي دور الضحيّة. عليه أن يتعلّم العبر نفسها التي تعلّمتموها، لأنّ أحداً لن يتمكّن من مساعدتهم.

* * *

لذا، أعداؤكم ليسوا أخصامكم الذين وُضعوا أمامكم لامتحان شجاعتكم. هم الجبناء الذين وُضعوا أمامكم لامتحان ضعفكم.



حلّ الليل. التفت القبطيّ إلى رجال الدين الذين كانوا يُنصتون إلى كلّ ما قاله، وسألهم هل يودّون إضافة أيّ شيء؟ أومأ الثلاثة إيجاباً.



وقال الحاخام:

عندما رأى حاخام عظيم أنّ اليهود كانوا يُعرّضون لسوء المعاملة، ذهب إلى الغابة، أشعل ناراً مقدّسة وتلا صلاةً خاصّة، متضرّعاً إلى الله أن يحمي شعبه. وحباه الله بمعجزة.

لاحقاً، ذهب أحد تلاميذه إلى الجزء عينه من الغابة وقال: «يا ربّ الكون، أجهل كيفيّة إشعال النار المقدّسة، لكنّي أعرف الصلاة الخاصّة؛ أرجو منك أن تسمعني!». وحصلت المعجزة ثانية.

مرّ جيل، وذهب حاخام آخر إلى الغابة، بعد أن رأى اضطهاد شعبه آنذاك، وقال: «أجهل كيفيّة إشعال النار المقدّسة، وأجهل الصلاة الخاصّة، لكنّي لا أزال أذكر المكان. أعنّا، ربّي!». وأعانه الربّ.

بعد خمسين سنة، خاطب حاخام آخر، وهو مقعد، وقال: «أجهل كيفيّة إشعال النار المقدّسة، وأجهل الصلاة الخاصّة، ولا يسعني إيجاد المكان في الغابة. كلّ ما يسعني فعله هو إخبار هذه القصّة وآمل أن يسمعني الله».

ومجدّداً، حصلت المعجزة.

إمضوا إذاً وأخبروا قصّتكم هذا المساء.

وانتظر الإمام القيّم على المسجد الأقصى، باحترام، أن يُنهي صديقه الحاخام حديثه، ثمّ قال:

«طرق رجل باب منزل صديق بدويّ طلباً لخدمة: «هلّا تقرضني أربعة آلاف دينار لأسدّد ديناً؟».

سأل الصديق زوجته أن تجمع كلّ ما كان قيّماً عندهما، لكنّه لم يكفِ. فاضطرّا إلى تسوّل المال من الجيران، إلى حين امتلكا المبلغ اللازم.

بعد رحيل الرجل، لاحظت الزوجة أنّ زوجها يبكي.

«لم الحزن؟ هل لأنّنا بتنا مدينين لجيراننا وتخشى ألّا نتمكّن من تسديد ديننا؟».

«لا. ليس هذا ما في الأمر. أبكي لأنّه صديق عزيز، ومع ذلك لم أكن على دراية بمشقّاته. عرفت بها عندما أتاني طارقاً بابي وطالباً المال».

* * *

إمضوا إذاً، وأخبروا الجميع بما سمعتم هذا المساء، كي نعين أخانا قبل أن يحتاج إلى عوننا.

وبعد أن فرغ الإمام من حديثه، أردف الكاهن المسيحيّ:

«خرجَ الزّارع ليزرعَ بذارهُ. وبينما هو يزرَع، وَقَعَ بعضُ البذارِ على الممرّات، فالتهمته طيورُ السّماء. وَوَقَعَ بعضهُا على الصَّخرِ، حيثُ التربة قليلة، فطلعَ من فورهِ، لأنَّهُ كان بِلا رطوبة. وعندما طلعتِ الشمسُ، أحرقته. ولأنّه لم يمتلك جذوراً، ذَبُلَ. وَوَقَعَ بعضهُ في وسط الأشواك، فطلعَ الشّوكُ معهُ وَخَنَقَهُ، فلم يُثمر. وبعضُ البذار وَقَعَ في الأرضِ الصّالحةِ، فأنتَجَ

ثمراً تبرعمَ وتكاثرَ، بعضه إلى ثلاثين ضعفاً، وبعضه إلى ستّين، وبعضه إلى مئة».

* * *

انثروا بذاركم إذاً أينما حللتم، لأنّنا نجهل أيّ البذار سينمو ويزدهر وينوّر الجيل الآتي.

سدل الليل ستاره على مدينة اورشليم، وسأل القبطيّ الجميع أن يعودوا إلى منازلهم ويدوّنوا كلّ ما سمعوه، أو يحاولوا تذكّر كلماته، لمن كان من بينهم امّيّاً. ولكن، قبل رحيل الحشد، قال:

لا تظنّنّ انّني اتيت لأنشر السلام على الأرض. إبتداءً من هذه الليلة وما بعد، سنجوب العالم حاملين سيفاً خفيّاً، لكي نحارب شياطين التعصّب والجهل. حاولوا أن تحملوا سيفكم هذا ابعد ما يكون. ومتى ضعفت اقدامكم، مرّروا الكلام او المخطوطة، مختارين على الدوام اشخاصاً جديرين بحمل السيف.

إذا رفضتكم قرية او مدينة، فلا تُصرّوا. ارجعوا على الدرب الذي عليه جئتم، وانفضوا الغبار عن اقدامكم. هذا لأنّهم محكومون بارتكاب الأخطاء نفسها لأجيال عديدة.

طوبى لأولئك الذين يسمعون هذه الكلمات او يقرؤون المخطوطة، لأنّ الحجاب سينشقّ من اوّله إلى آخره، وما من مستور لن يُكشف امامكم.

اذهبوا بسلام.



الجية، طلعة زاررط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يوليو 2017 **
www.ibtesamh.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

مخطوطة وُجِدَتْ في عكرا

مخطوطة على أوراق بَرْديّ عُثر عليها مُصادفةً، وبيعت أوراقاً مبعثرة..

وحين جُمِعت بصعوبة بعد عشراتِ السنين، تبيّن كم هي خطرة وتمسُّ مفاهيم كبيرة؛ فتعرّضت لمحاولاتِ تلفٍ وإخفاء وطمس.

كيف وصلت إلى يد باولو كويلو؟ هل نقل محتواها كلّه؟ هل استلّ منها الأهم والأكثر استفزازاً وإثارة للجدل؟ هل لخّص الصراع الوجودي والخلافات العقائدية من خلالها، أم أنه قدّم جردةَ حسابٍ لما أوحت به الديانات ورجال الدين، أم قامَ، وكأنه لا يعني ذلك، استعراض المفاهيم الكبيرة من قدرٍ ومصيرٍ وعلاقات بشرية وعُزلة وجنس وعداوة؟!

ربّما فعل كل ذلك في رواية محبوكة الأطراف ترك سرّ دخوله إليها وتدخّله بها طيّ الكتمان.. وربّما اعتمد الرمز ليتسلّل إلى واقعنا ووقائعنا ويتحدّث عنهما وهو يدّعي الحديث عن أكثر من ألف عامٍ خلت؟!

كويلو روائي لا يمكن ضبطه متلبّساً أبداً..

ISBN 978-9953-88-776-0
9 789953 887760

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥٠ - بيروت - لبنان
تلفون: ٩٦١ ١ ٣٥٠٧٢٢ +
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١ +
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com